

جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

الأسلوب البياني في الخطاب القرآني سورة البقرة نموذجاً – دراسة موضوعية تطبيقية–

إعداد الطالب

ضيف الله ناجي عبد الله اللصاصمة

إشراف

الأستاذ الدكتور نايل أبو زيد

رسالـــــة مقدمـــة إلى عمادة الدراســـات العليا

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في التفسيـــــــر/ قســـم التفسيـــــــــــر

جامعة مؤتة، 2012

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإهداء

يد لداىل إ: أسأل الله الكريم أن يحفظ عليه دينه وصحته وأن يمفي سني ّ عمره.

إلى روح والدتي الطاهرة سائلاً ربي أن يرحمها ويُسكنها الفردوس الأعلى.

إلى أساتذتي: إلى كل من علمني حرفاً .

إلى زوجتي وأولادي: فعلى وقتهم كانت هذه الدراسة.

ضيف الله اللصاصمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشكر والتقدير

بدايةً أشكر مولاي الذي أعانني على تمام هذه الدراسة، فالحمد له حمداً حمداً، والشكر له شكراً شكراً، فنعم المولى ونعم المعين.

ثمّ إنّي بعد شكر الله تعالى ، أشكر كل من ساعدني في هذا البحث منذ كان وليداً حتى يفعَ وأشتد، وأخص بالشكر العالم الربّاني الأستاذ الدكتور: نايل أبو زيد، لما قدم لي من النّصح والتوجيه فقد ذلّل وفقه الله صعاباً اعترضتني في دراستي.

كما وأتوجه بالشكر للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بقبول قراءة الرسالة والتفضل بتقويمها وإصلاح عيوبها، ومناقشة كاتبها، ورحم الله من أهدى إليّ عيوبي.

وأخيراً ..

وأمُّ البنين فشكري لها وأكرم بشكر على صبرها

فقد تحملت عنائي مدة دراستي.

والله أسأل أن يلُهمنا رشدنا، ويُعيذنا من شرور أنفسنا، ويرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.....

ضيف الله اللصاصمه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهرس المحتويات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الملخص

الأسلوب البياني في الخطاب القرآني، سورة البقرة أنموذجاً – دراسة موضوعية تطبيقية–

ضيف الله ناجي اللصاصمة

جامعة مؤتة، 2012

لقد اتبع الباحث في دراسته المنهج الوصفي الذي يجمع بين الاستقراء والتحليل للخطاب في سورة البقرة، وقد قامت هذه الرسالة على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

ففي المقدمة أشار الباحث إلى تميز الخطاب القرآني على الخطاب البشري، وأثره البيّن في تكوين وتقوية الملكة اللغوية لدى الباحثين، والمح إلى أن الخطابات القرآنية لا تزال بكراً ، فهي بحاجة إلى جهود الباحثين للكشف عن حقائق نظم القرآن الكريم وأساليبه البلاغية والخطابية.

وفي التمهيد حيث اشتمل على الإطار النظري وأدبياته للرسالة، وعرض الفصل الأول التعريف بسورة البقرة وفضلها ومفهوم الخطاب ودلالاته في السياق القرآني، ثم تحدث الفصل الثاني عن أنواع الخطابات في السورة مفصلة بدلالاتها البيانية، فيما تحدث الفصل الثالث والأخير عن الجانب التطبيقي وفيه نماذج بلاغية وفنية مختلفة من السورة.

وقد خلصُت الدراسة إلى أهم النتائج والتوصيات التي يراها الباحث:

1. أن فكرة الإعجاز القرآني قديمة قدم القرآن نفسه، ولطالما لفت النبي r المسلمين إلى التعامل مع القرآن الكريم باعتباره وحدة واحدة.
2. عزز البحث حقيقة الوحدة الموضوعية في سورة البقرة، من خلال اسمها مع محورها، التناسب في خطابها، وكذا تناسب فواصلها، وتميزها بمفردات خاصة بها.
3. إنّ الباحث عن لطائف الإعجاز البلاغي؛ في القرآن الكريم بشكل عام وسورة البقرة بشكل خاص يجد ما يشبع النهم، ويكسب الدارس له ملكة في التفسير البياني مميزة.

يرى الباحث أن هناك عدداً من القضايا والعناوين الفرعية في هذه الرسالة تستحق أن تفرد برسائل مستقلة، كالتقديم والتأخير مثلاً فهو باب واسع في السورة، والفاصلة القرآنية التي لا تكاد تخلو منها آية في السورة، إلى آخر الأمثلة في ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Abstract

The Eloquent style in Qur`anic discourse Surat AL-Baqarah "The cow" as an example: "Objective and applied study" -Applied objective study-

Daifallah Naji AL. Asasamh

Mutah University,2012

The researcher followed in his study descriptive approach that combines induction and analysis of discourse in AL-Baqarah.

This study based on the beginning four chapters and an epilogue.

In the beginning the researcher aimed to the distinction of the Qur`anic discourse and human discourse and it has influenced to form and strengthing the researchers language. The researcher said that the Qur`anic discourse still mysterious to recognize and need the efforts and hard works from all researchers to find out the rhetorical and oratorical methods in the Qur`nic system.

In the first chapter he looked on the principles and framwork of his letter and in the second chapter he viewed the definition of AL-Baqarah and its virtues the concept of discourse and implications in Qur`anic context then the researchers spoke in the thired chapter on the types of discourse and he explained each eloquent in it.

At the fourth chapter, he spoke about how the rhetorical and the artistic samples applied in Surat AL-Baqarah.

The conclusion of this study that researcher recommended is:

1. the idea of the qurnic mircal is as old as the quran itself and the prophet Mohammad "pb" said to muslims to deal with quran as a unite.
2. the researcher enhanced the thematic unity in surat Al_Baqarah through its name and its content the proportionality of discourse , commas and the distinguish of its own words.
3. a person who look for the benefits of quranic mircals in generals and in AL-baqarah inparticular he will find what will satisfy his needs and he earns the ability to diserip and analyze.
4. the researcher find out there are numbers and subheadings in this study deserve to be studied each one alone. And the switch in words like forward as back ward as an example ,it's a huge and wide to be known, and also the comma wich you find in each verse and so on…….!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي الذي أصطفى،وعلى آل بيته الطاهرين وصحابته الطيبين،ومن سار على نهجه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:-

فإن الخطاب القرآني خطاب هداية وتشريع،يحدد القيم والمُثل العليا والمقاصد الأساسية، ويظل مشغلة الدارسين جيلاً بعد جيل، لا يضاهيه خطاب وكلما حسب جيل أنه اقترب منه امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمع عالياً يفوق خطاب الدارسين كونه من عند الله عز وجل.

"فالخطاب القرآني يدرس كل عصر وزمان ويتجنب إضفاء القداسة على تجربة تاريخية معينة، فهو يتوجه بشكل مباشر وهادف إلى الإنسان في كينونته الكاملة عقلاً ونفساً ووجداناً وعاطفةً ، وله سلطان عجيب على القلوب ليس لكلام آخر، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً .

إنّ هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها، ويخاطبها من أقصر طريق، ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها.

ويُنشيء فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق وبهذا الشمول، وبهذه الدقة وهذا الوضوح،وهذا الأسلوب أيضاً "[1].

لذا جاءت هذه الدراسة لتؤكد أن الخطاب القرآني يستوعب العصور المعرفية لحضارة النوع الإنساني قاطبةً دون تحديد ، كما أنه تحدي لكل محاولات النسق الفكري العولمي، الذي شن هجوماً على القرآن لانتزاع دلالة نصوصه بحجة التحديث والتجديد ، فالخطاب القرآني يتحدى ببيانه وسماته هذه الفئات الفاسدة ويعلو على كل الصيحات التي ستموت في أثناء ولادتها ، لأن القرآن باقٍ قال تعالى "إنّا نحن نزّلنا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "(الحجر:9).

---

[1] - قطب، سيد، في ظلال القرآن ، دار الشروق، ط13-1977،1787/3.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أدبيات الدراسة وا ٍطارها النظري

تمهيد:

إن أفضل ما يُفتح به الكلام حمد الله تعالى، وأحق ما يمسك به الأنام دين الله تعالى، وأحرى ما يزجي في تفهمه الأيام كتاب الله تعالى، فالحمد لله الذي هدانا للإيمان، وفهمنا علم القرآن، وجنبنا عبادة الأوثان، والصلاة والسلام على نجي خطابه، وسفير كتابه، محمد وآله وأصحابه([1]) والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين...أما بعد:

فإن الوجوه التي أعجز بها القرآن من تحداهم بالإتيان بمثله من إنسٍ وجنٍّ كثيرة ومتعددة، ولا أعدو الصواب إذا قلت: إن ما بُذل ويُبذل في هذا الباب –على كثرته– لا يعدو شاطئ البحر إلى لُجته،إذ أن بحر القرآن الكريم ما زال زاخراً بلآلئ الإعجاز الزاهية، وما يزال العلماء على مر العصور يقفون أمام هذه المعجزة الربانية، واللطيفة الرحمانية، موقف التلميذ النهم، يغترف من معلمه العظيم ما يشرح الصدور، ويبدد الظلمات بالنور ويقطف من بساتين علمه من كل ما يسلب اللب جماله، ويذهب بالعقول بهاؤه.

ثم إن المفسرين قد تنوعت مشاربهم العلمية، وتفاوتت قدراتهم الذهنية؛ ومن ثم فقد تنوعت وجهاتهم في تفسير النص القرآني ما بين مائلٍ إلى استنباط الفقه،وآخر متكلمٍ حاذقٍ،وثالث أديبٍ لغويٍّ رائق،ورابعٍ أثري حافظ.

ووقوعاً على الفائدة الأصيلة، رأيت أن أكتب في هذا الموضوع وأتخير فيه أمثلة تطبيقية على وجوه الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن الكريم من خلال سورة البقرة، أبين فيها طرفاً من الاهتمام والعناية بهذا الجانب الأخطر من جوانب الإعجاز والبلاغة، وانما كان الاختيار لسورة البقرة كحقلٍ لهذا الاستقراء لما علم من عادة المفسرين من استفراغهم جهدهم الأعظم في التفسير في البدايات.

مشكلة الدراسة:

رغم الأهمية إلى الخطاب الإسلامي للمسلمين خاصة ولغيرهم بشكل عام، إلا أن هذا الخطاب يحتاج إلى الكثير من البيان والبلاغة والإهتمام والعناية التي تجعله أكثر

---

(1) انظر: السمرقندي، أبو النصر، المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، تحقيق: صفوان عدنان، دار القلم– بيروت 1408هـ، ط1، ص51.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تأثيراً في الناس بشكل عام، والذي لا يستطيع كل إنسان أن يعرف مثل هذه السمات، مما يستدعي البحث والتقصي عنها، والوقوف على حقيقتها من خلال المنهج القرآني واستقراء آياته، وهنا تكمن مشكلة الدراسة في معرفة ما هي هذه السمات البلاغية والبيانية التي لا بد منها. وهذه الأساليب البلاغية والسمات الفنية، وأسرار تنوع الخطاب، حقيقةً لا يعرف مكنوناتها، وجمالياتها إلا الذي يدرس آيات الكتاب العزيز، ويتلذذ في بلاغياته، وينهم منه ما يستطيع أن ينهم.

أهمية الدراسة

1. تعلق موضوع الخطاب بالقران الكريم أعظم كتاب على وجه الأرض.
2. حداثة مثل هذه الدراسات البلاغية وقلتها، إذ درج العلماء في كلامهم عن إعجاز القرآن أن يتكلموا عن ذلك مجملاً فكانت الحاجة إلى أن يفصّل في ذلك.
3. مكانة سورة البقرة من القرآن الكريم، فهي كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ لكلِّ شيءٍ سناماً، وإنَّ سنامَ القرآنِ سورةُ البقرةِ، وإنَّ الشيطانَ إذا سمعَ سورةَ البقرةِ تُقرأُ خرجَ من البيتِ الذي يُقرأُ فيهِ سورةُ البقرة)[1].
4. أهمية القرآن الكريم في الدراسات اللغوية والبلاغية، فهو الأصل الأول من أصول العربية لما فيه من جلال المعاني وجمال المباني.
5. الخطاب في القران الكريم يعتبر أهم ركيزة تمثلها الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم.

أهداف الدراسة:

1. ابتغاء مرضاة الله تعالى أهم هدف وأعظم غاية أرجوها من كتابة هذا البحث.
2. التعرف إلى طريق القران الكريم ومنهجه الرائع في عرض موضوع الخطاب والعناية به.
3. الرغبة في تسليط الضوء على طبيعة الخطاب وآياته وآدابه في سورة البقرة.

---

(1)–رواه الحاكم،محمد بن عبدالله(1014)م،فضائل القرآن،(561/1)،تحقيق مصطفى عبدالقادر،دار الكتب العلمية ،بيروت، والبيهقي، احمد بن الحسين(458)هـ، شعب الإيمان(452/2)، رقم(3277)،مكتبة الرشد،الرياض، وذكره الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة (135/2)، حديث رقم(588)، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، 1415هـ - 1995م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

4. إخراج بحث تفسير موضوعي حول أساليب البيان في الخطاب في سورة البقرة
5. يزيد طالب العلم فهماً ومعرفة لكتاب الله تعالى.
6. تسليط الضوء على نماذج من الخطاب في سورة البقرة فعلى سبيل المثال لا الحصر خطاب الله إلى الملائكة، ومع آدم، ومع المؤمنين الصالحين.
7. تسليط الضوء على نماذج بلاغية وفنية في آيات سورة البقرة.

أسباب اختيار الدراسة:

1- الحاجة الماسة إلى معرفة ما يتضمنه الخطاب القرآني من سمات بلاغية وبيانية.
2- مواكبة العالم والعولمة بخطاب إسلامي قرآني.
3- تعريف الناس بجمالية الخطاب القرآني وأساليبه البيانية الرائعة.
4- إخراج بحث منشور حول كنوز الخطاب البلاغية والنظمية في أعظم سورة في القرآن الكريم سورة البقرة.

الدراسات السابقة

هناك العديد من الدراسات السابقة تناولت هذا الموضوع بطرق وأساليب مختلفة.

دراسة (عودة، 2006) بعنوان (أدب الخطاب عند الأنبياء عليهم السلام من منظور قرآني، موسى عليه السلام نموذجاً).

دراسة (محمد، 2007) التناسب في سورة البقرة.

دراسة (عطية 1989) الخطابات في القرآن الكريم وتعدد وجوه الخطابات.

منهج الدراسة: تقوم هذه الدراسة على محورين:

المحور الأول: النظر إلى الخطاب نظرة عامة لبيان موقعه ومقصوده الأعظم وسياقه العام والخاص.

والمحور الثاني: القائم على التحليل البياني، لبيان الخصوصيات البلاغية ودلالاتها وعلاقتها مع بعضها.

ثم إتباع المنهج الاستقرائي في استقراء آيات سورة البقرة التي تتضمن الخطاب، بحيث يتم التالي:

1. عزو الآيات القرآنية إلى سورها مع ذكر اسم السورة ورقم الآية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

2. جمع الآيات المتعلقة بالموضوع في سور القرآن وتتبع أراء المفسرين فيها من كتب التفسير المختلفة.
3. تخريج الأحاديث من كتب الحديث،ذاكراً الكتاب والباب ورقم الحديث.
4. ترجمت الأعلام في الهامش عند ورود الاسم لأول مرة في صلب الموضوع.
5. استخراج الأسرار البلاغية وأسرار التشابه في النظم القرآني من كتب البلاغة، والمصادر ذات العلاقة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول

التعريف بسورة البقرة ومفهوم الخطاب ودلالاته في السياق القرآني

1.1 فضل سورة البقرة

لقد وردت عدة أحاديث وآثار، في فضل سورة البقرة، وخواتيمها وآية الكرسي، منها:

عن النواس بن سمعان[1] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال: كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما)[2].

وعن أبي بن كعب[3]؛ أن النبي ﷺ قال: (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال: والله ليهنك العلم أبا المنذر)[4].

وعن ابن عباس قال: (بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال

---

(1) هو: النواس بن سمعان بن صعصعة العامري، له ولأبيه صحبة، سكن الشام،العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر،الإصابة في تمييز الصحابة 478/6، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،والعسقلاني، تهذيب التهذيب 544/4، تحقيق: عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان2008م. ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة 460/1-461، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1-1996م.

(2)مسلم، الحجاج (ت:261)هـ، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، (رقم 804، 805). بيت الأفكار الدولية، الرياض، د.ط، 1419هـ - 1998م.

(3) أبي بن كعب بن قيس الخزرجي الأنصاري،(ت22هـ)من كتّاب الوحي،شهد بدراً والمشاهد كلها، من اللجنة التي كلفها عثمان بنسخ القرآن [ابن الأثير، أسد الغابة57/1-58، الزركلي، خير الدين، الأعلام82/1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان] .

(4) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم: (810).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

... لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم ... وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)[1].

وعن أبي مسعود البدري[2] قال: قال رسول الله e: (الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه)[3].

وعن عبد الله بن مسعود([4])، قال e: (إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن سورة البقرة)[5].

وعن أبي هريرة[6] – رضي الله عنه – أن رسول الله e قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)[7].

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم: (806).

(2) هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة، أبو مسعود الأنصاري البدري(ت:40هـ)،سكن بدراً ، وشهد موقعتها كما قال البخاري، أقام في الكوفة، واستخلفه علي عليها لما سار إلى صفين.ابن الأثير،أسد الغابة في معرفة الصحابه318/7، العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقمه محمد فؤاد عبد الباقي، وقرأ أصله الشيخ عبد العزيز بن باز، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض. 55/9].

(3) البخاري، محمد بن إسماعيل(ت:256هـ)،الجامع الصحيح، كتاب المغازي رقم:(4008)، وكتاب فضائل القرآن رقم:(5008، 5040، 5051)، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1419هـ - 1998م،مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم(807، 808).

([4])- عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب(ت:32هـ)، أبو عبد الرحمن الهذلي الإمام الحبر فقيه الأمة، من السابقين الأولين، أول من جهر بالقرآن، هاجر الهجرتين،وشهد بدراً وجميع الغزوات. [انظر:ابن الأثير،أسد الغابة في معرفة الصحابة (74/3)، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء(461/1)، حقق بإشراف: شعيب الأرناءوط وأكرم البوشي].

(5) -الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة،(رقم 588)، والحاكم في كتاب فضائل القرآن(561/1)، والبيهقي في شعب الإيمان(452/1) رقم(3277).

(6) - عبد الرحمن بن صخر الدوسي أبو هريرة (ت59هـ)، أسلم سنة سبع للهجرة، لزم الرسول r وكان من أكثر الصحابة حفظا للحديث ورواية له، استعمله عمر على البحرين، وكانت وفاته بالمدينة.ابن الأثير، أسد الغابة 119/5-120،الزركلي، الأعلام 308/3].

(7) - مسلم،صحيح مسلم، في كتاب صلاة المسافرين، رقم:(780).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وروى كثير بن عباس[1] عن أبيه أن الرسول e قال له عندما ولى المسلمون يوم حنين: (يا عباس! ناد قل: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة)[2].

وعن عثمان بن أبي العاص[3]: (استعملني رسول الله r وأنا أصغر الستة الذين وفدوا عليه من ثقيف وذلك أني كنت قرأت سورة البقرة فقلت يا رسول الله إن القرآن ينفلت مني فوضع يده على صدري وقال يا شيطان اخرج من صدر عثمان فما نسيت شيئاً أريد حفظه)[4].

2.1 ترتيب السورة في المصحف

سورة البقرة هي السورة الثانية في المصحف العثماني، بعد سورة الفاتحة وقبل آل عمران. وهذا الترتيب –على الراجح من أقوال العلماء – ليس باجتهاد الصحابة، رضوان الله عليهم وإنما هو توقيفي بتوجيه الرسول e وحياً؛ وبالأخص في العرضة الأخيرة، ويكفي دليلاً على هذا القول أنه متواتر حفظاً وكتابة؛ تناقلته الأمة من لدن الرسول e وحتى يومنا هذا.

---

(1)– كثير بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم الرسول r، ولد قبل وفاته بأشهر، كان فقيها فاضلاً .ابن الأثير، أسد الغابة 519/3].

(2) – مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم (1775).

(3)عثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي، (ت 55هـ)، أسلم في وفد ثقيف فاستعمله النبي على الطائف، وأقره أبو بكر وعمر، وحين همت ثقيف بالارتداد قال لهم : يا معشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاماً فلا تكونوا أولهم ارتداداً ، له أحاديث في البخاري ومسلم، ابن الأثير، أسد الغابة 212/3–213،الذهبي، سير أعلام النبلاء، 2/ 374– 375].

(4) رواه البيهقي في دلائل النبوة (308/5)، وذكره الألباني، السلسلة الصحيحة (1001/6).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث يقول الإمام البغوي[1] إن " الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله e من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئاً . إنهم كتبوه كما سمعوا من رسول الله e من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله e وكان رسول الله e يلقن أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف من جبريل – صلوات الله عليه –إياه على ذلك، وا ٍعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في السورة التي يذكر فيها كذا؛ فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة"[2].

ويؤكد الدكتور فضل عباس أن:" ترتيب السور في كتاب الله تعالى توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه، فكما أن الآيات كانت بترتيب أخذه النبي e عن جبريل عن الله رب العالمين، فإن ترتيب السور كذلك. هذا هو مذهب الجمهور، وليس كما ذكر السيوطي – رحمه الله – من أن مذهبهم أن ترتيب السور اجتهادي" [3].

3.1 أسماء السورة وسبب التسمية لكل اسم.

أسماء السور، المثبتة في المصاحف هي على الأرجح توقيفية، أي ثبتت بالوحي؛ وفي ذلك يورد السيوطي أنه قد " ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من

(1)–البغوي، الحسين بن مسعود الفراء الشافعي،(436– 516هـ) من خراسان، كان إماماً في الفقه والتفسير والحديث، له: معالم التنزيل، في التفسير، والتهذيب في الفقه، والجمع بين الصحيحين. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، طبقات المفسرين، ص: 49–50، ، تحقيق: علي محمد عمر ،مكتبة وهبة، القاهرة ط1– 1396هـ. الأدنروي، أحمد بن محمد، ص:158–160،طبقات المفسرين ، تحقيق: سلمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة،ط1–1997م.

(2) – البغوي، الحسين بن مسعود، شرح السنة، (521/4–523)، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 3، 1403هـ – 1983م.

(3)– عباس، فضل حسن، إتقان البرهان في علوم القرآن، (449/1)، دار الفرقان، عمان، ط1، 1418هـ – 1997م.و السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن(135/1)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1415هـ – 1995م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأحاديث والآثار"[1]. بل إن أستاذنا الدكتور فضل عباس ليذهب إلى أنه من المستبعد عقلاً أن لا يكون لكل سورة اسم خاص تعرف به في عهد النبي e [2].

ويجدر التنويه إلى أن بعض الأسماء أشهر من بعض، وألصق بالسور من غيرها، فضلاً عن أن بعض الأسماء توقيفية، وبعضها اجتهادي وأشبه بالأوصاف والألقاب وما تتسم به بعض السور، مما أطلقه الصحابة الكرام، ومَن بَعدهم على هذه السورة أو تلك، تنويها بفضلها،أو إبرازاً لجليل معانيها.

وفيما يتعلق بسورة البقرة موضوع هذه الدراسة، فإن لها من الأسماء، سوى البقرة: سنام القرآن، و فسطاط القرآن، وهي مع سورة آل عمران الزهراوان، وفيما يأتي بيان لكل اسم وسبب التسمية به:

1. البقرة: سميت السورة بهذا الاسم لقصة البقرة الواردة فيها، حيث قتل في بني إسرائيل قتيل، فأمرهم الله تعالى على لسان موسى e أن يذبحوا بقرة، وبعد كثير من المماطلة والتلكؤ ذبحوها، فأمروا أن يضربوا جسم القتيل ببعض البقرة، فأحياه الله تعالى، وأخبر عن قاتله، وذلك في الآيات الكريمة من (67 . 74).

2. الزهراء: ففي الصحيح عن أبي أمامة الباهلي[3] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله e يَقُولُ:

(اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)[4].

---

(1)–السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص115.

(2) – عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن (447/1).

(3) هو صديّ بن عجلان بن وهب الباهلي، (ت 81هـ)، صحابي شهد مع الرسول جميع الغزوات سوى بدر، آخر من مات من الصحابة بالشام، له في الصحيحين 250حديثاً .ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 375/4،الزركلي، الأعلام، 303/3].

(4)–مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم: (804، 805).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأصل الزهر :الحسن والضياء والصفاء، والزهرة:النجم المعروف، الأزهر : القمر ، وأزهرت النار : بمعنى أضاءت[1]، والزهراوان:النيِّرتان، مأخوذ من الزهر والزهرة: فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما، أي من معانيهما،وا ٕما لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة"[2].

والغيايتان والغمامتان: كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما، والمراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين[3].

3. سنام القرآن: عن ابن مسعود، رضي الله عنه، عن النبي e قال:(إنَّ لكلِّ شيءٍ سناماً وإنَّ سنامَ القرآنِ سورةُ البقرةِ وإنَّ الشيطانَ إذا سمعَ سورةَ البقرةِ تُقرأُ خرجَ من البيتِ الذي يُقرأُ فيهِ سورةُ البقرة)[4].

4. وسنام كل شيء أعلاه[5]، وسورة البقرة سنام القرآن" إما لطولها واحتوائها على أحكام كثيرة، أو لما فيها من الأمر بالجهاد، وبه الرفعة الكبيرة"[6].

5. فسطاط القرآن: كما كان يسميها خالد بن معدان[7]، " وذلك لعظمها ولما جمع فيها

---

(1) – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (ت:395)هـ (ص462– 463)، حققه شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، ط1، 1415هـ– 1995م.

(2)–القرطبي، محمد بن حامد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، (5/4)، دار الفكر، بيروت، 1415هـ - 1995م.

(3)–النووي، محمد، شرح صحيح مسلم، (90/6)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1347هـ– 1929م.

(4)–رواه الحاكم في كتاب فضائل القرآن(561/1)، والبيهقي في شعب الإيمان(452/2)، رقم(3277)، وذكره الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة (135/2)، حديث رقم(588)، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، 1415هـ – 1995م.

(5)– ابن منظور، لسان العرب: مادة سنم(306/12–308)،دار لسان العرب،بيروت(1970).

(6) –المباركفور ي، أبو العلي محمد بن عبد الرحمن، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، (181/8)، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط2، 1406هـ – 1986م.

(7)–خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي(ت104هـ)، تابعي، ثقة، أصله من اليمنوا ٕقامته في حمص، تولى شرطة يزيد بن معاوية، [ابن عساكر،علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، 189/16–205،دار الفكر،الزركلي، الأعلام، 299/2].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الأحكام التي لم تذكر في غيرها"[1]، والفسطاط:البيت من الشَّعر [2].

4.1 معنى الأسلوب البيان والخطاب في اللغة والاصطلاح:

البيان لغة: " من الفعل بان ويقُال بان الشيء وأبان، إذااتّضح وانكشف، وفلان أبين من فلان، أي: أوضح كلاما منه([3]).

وفي لسان العرب: " بان الشيء بيانا اتضح،فهو بيّن، وأبنته أنا،أي وضّحته، واستبان الشيء ظهر، واستبنته أنا عرّفته، والتبيين: الإيضاح"([4]).

و يبدو أن لفظة(بَيَن) كغيرها من ألفاظ اللغة قد ارتبطت في أول العهد بِها بدلالتها على الأشياء الحسية؛ إذ كانت تُستعمل فيما كان خفيًّا من تلك الأشياء، ثم ظهر، فكانوا يقولون: بانت النخلةُ طالت طولاً ظاهراً .ثم تتطور ذلك الاستعمال؛ حيث أُطلِقَتْ على ظهور المعقولات من بعد خفائها، فيقال بانت الحجة: اتَّضحت، وبان المعنى: ظهر في عبارة واضحة.

مفهوم البيان في الاصطلاح

أما مصطلح (البيان) فقد تعلّق بذلك المدلول اللغوي،وصار يُستخدم علَمًا على الإبانة والإفصاح عما يجول في نفس الإنسان بالكلام الفصيح وغيره، وهو بذلك المفهوم يرادف مصطلحي البلاغة والفصاحة، ثم انحصر مفهومه فيما بعد؛ ليصير مصطلحاً على مجموعة من الطرائق التعبيرية التي تشترك في صفة الإبانة، وتختلف في درجة الإيضاح كالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية.

وهذا يدلنا في مقام التأريخ والدرس على أن مصطلح البيان قد مرَّ خلال رحلة تطوره العلمي بطورين:

---

(1)–السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (119/1).

(2) – الرازي، محمد ابن أبي بكر مختار الصحاح، (ص249)، دار عمار، عمان، ط1، 1417هـ- 1996م.

(3)– ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ط1، مادة (بين).ص147

(4)– ابن منظور، لسان العرب، مادة (بين) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطور الأول: ويمكن تسميته بطور المفهوم الفني العام؛ إذ ظل مصطلح البيان بمدلوله البلاغي العام يلتفت إلى شِدقّه اللغوي،من حيث دلالته على كلّ ما من شأنه الإبانة عن المعنى بأية طريقة من طرائق التعبير. وقد ظهرت بوادر هذا الطور بدخول مصطلح البيان دائرة البحث البلاغي.

ولعل الجاحظ (ت255هـ) يكون من أوائل من استعمل مصطلح البيان استعمالاً بلاغياً،وإن لم يخرج به في هذا الاستعمال عن معنى الإيضاح والكشف([1]) فالبيان عنده " اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى،وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته،ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنسٍ كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام،فبأي شيء بلغْتَ الإفهامَ وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"([2]).

وقد استقر البلاغيون على تعريف السكاكي لعلم البيان بأنه: (إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد به([3]).

ونوّه البلاغيون العرب القدامى بأهمية البيان، وفي مقدمتهم عبدالقاهر الجرجاني(ت 471) بقوله: "ثم إنّك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً ،وأعذب ورداً ،وأكرم نتاجاً ، وأنور سراجاً من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدر، وينفث السحر، ويقري الشهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك اليانع من الثمر، والذي لولا تحفّيه بالعلوم وعنايته بها، وتصويره إياها لبقيت كامنة مستورة، ولما استبنت لها يد الدهر صورة، ولاستمر السرار بأهلها،

---

(1)- ينظر: شرف، حفني، التصوير البياني، مكتبة الشباب1970، ص86.

(2)- الجاحظ، عثمان بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط5، 1985، 76/1،

(3)- السكاكي، يوسف بن محمد، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت- ط1-2000. ص224

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واسـتولى الخفـاء علـى جملتهـا، إلـىفو ائـد لا يـدركها الإحـصاء، ومحاسـن لا يحصرها الاستقصاء" ([1]).

وتتجلّى أهمية البيان في ميادينه تلك: إن إجادة تحقيق قوانينه وا ٍبداع مهارته وفهم ثماره أمور تقتضي توفر آلات وأدوات ذكر منها ابن الأثير(ت:637) في" المثل السائر": معرفة علم العربية من النحو والصرف، ومعرفة ما يحتاج إليه من اللغة، وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي والغريب، ومعرفة أمثال العرب وأيامها،والاطلاع على تأليف من تقدّم من أرباب هذه الصناعة المنظوم منه والمنثور، وحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ومعرفة علم العروض والقوافي([2]).

كما ذكر مصنفو كتب علوم القرآن:إنّ كلمة البيان دالة على ما يمتاز به القرآن من الأسلوب المعجز في موضوعاته الدينية والفكرية وفي لغته الفصيحة "([3]).

ويذهب الزمخشري إلى أنّ البيانهو ما يمّيز الإنسان عن سائر الحيوان، وهو المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير([4]).

إنّ كلمة البيان نفسها، على الرغم من الاختلاف في تفسيرها، تدل، في ضوء الدراسات اللغوية العلمية والبحوث البلاغية والنقدية القديمة والمعاصرة على الملكة التي خلق الله تعالى عليها الإنسان كائنا قادرا على التعبير عما في نفسه، والتأثير فيمن حوله من بني جنسه، فمدلول كلمة (البيان) بين يدي القرآن الكريم، هو ملكة التعبير ونتاج هذه الملكة من فن القول.

---

(1)- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1998، ص5-6

(3)- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، (ت: 637)هـ تحقيق أحمد الحوفي، وبدون طباعة، دار الرفاعي بالرياض، ط3- 1984م.

(3)- مطلوب، أحمد و حسن كامل، البلاغة والتطبيق،منشورات وزارة التعليم العالي – العراق 1999، ط2، ص251 .

(4)- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ت(528)هـ، دار الريان للتراث- القاهرة 1987، 49/4 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطاب لغة:

الخطاب مشتق من الفعل (خَطَبَ)؛ ويأتي على عدة معانٍ ؛ منها[1]:

1- الخَطب: وهو الشأن، أو الأمر؛ صغر، أو عظم.

2- الخِطبُ : الذي يخطب المرأة، وهي خِطبة.

3- خَطّاب: كثير التصرف في الخطب.

4- خَطِبَ خَطَباً ،وخطبةَ : كان في لونه خطبه.

خطب الكلام بين أثنين، يقال خاطبه يخاطبه خطاباً ، والخطبة من ذلك بمعنى الكلام المخطوب به، وسميت بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة [2].

بالنظر في المعاني اللغوية السابقة يظهر أن المعنى المناسب للخطاب هو الشأن، أو الأمر.

الخطاب في الاصطلاح:

ورد الخطاب في الاصطلاح لمعانٍ على النحو الآتي:

1- عرّف عبد السلام المسدي الخطاب أنه: "ما يبلّغ للغير"[3].

2- عرّفه علوان أنه:"جملة ما يصدر عن المتكلمين من أجل الإقناع والتأثير"[4]

3- عرّفه علي عبد الحليم محمود أنه: " لون من ألوان القول، يحشد له الخطيب من الأسباب ما يمكّنه من التأثير في سامعيه، وجذبهم بما سوق من الحجج، والبراهين المقنعة "[5].

---

(1)- انظر ابن منظور، لسان العرب: 98/5 .

(2)- انظر ابن فارس، مقاييس اللغة، ص304

(3)- المسدي، عبد السلام، الأسلوب والأسلوبية، 1982، الدار العربية للكتاب، ط3، ص116، بتصرف.

(4)- علوان، نعمان شعبان، الأساليب البيانية والخطاب الدعوي الواعي، الجامعة الإسلامية-غزة، ص1391. بتصرف

(5)- محمود، علي عبدالحليم، فقه الدعوة إلى الله، 1991، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط2: 169/1 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

4– عرّفه السد أنه: " خلق لغة من لغة "([1]).

التعريف المختار:

هو ما خاطب الله تعالى به الناس عامة، والمؤمنين خاصة، يدعو فيه إلى المطالب العالية، والفضائل السامية، والتشريعات الهادية الموجهة إلى كل خير، وهذه المطالب والفضائل والتشريعات والأخلاق لا تقف عند زمن معين، ولا عند فئة معينة بذاتها وإنما لكل البشرية إلى آخر الزمان.

وقد وردت لفظة الخطاب في القرآن الكريم بمعناها الاصطلاحي في ثلاث آيات في سورتين من سور القرآن الكريم، قال تعالى: "وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ" (ص:20)، أي: تفصيل الكلام، وقال تعالى: "فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ" (ص:23)، أي: الجدل والحجاج، كما قال تعالى: "رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً" (النبأ:37) أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبة، الإ بإذنه([2])، فلا يتكلم أحد إلا بشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صوابا[3].

5.1 التعريف بالخطاب وأركانه

إنّ الخطاب القرآني . على وجه التخصيص . نوّع من أنساقه التعبيرية بحسب تنوّع الموضوع أو الحكم، فقد يكون الخطاب موجزاً، فيأتي بألفاظ قليلة للتعبير عن الدلالات الكثيرة والعميقة، ويسوق لطائف بلاغية في حسن التعبير والإنشاء والإحاطة بالمعنى والقبض على الدلالة، كما يكون الخطاب مسهباً في تعداد الصور، فيأتي حافلاً

---

(1)– السد، نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر– الجزائر، 1997، 68/2.

(2)– ابن كثير، إسماعيل بن كثير(774)هـ تفسير القرآن العظيم، ج1،ص421،دار المفيد، بيروت،1983م.

(3)– الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، 1974، ط2، 107/5.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالصيغ المتوالية عن طريق الروابط اللفظية والمعنوية وأدوات الوصل التي تعمل على ربط السابق باللاحق من الآيات.

كما إن أساس الخطاب هو وجود ثلاثة أطراف لتحقيق الفاعلية المقصودة وهذه الأطراف هي: المخاطَب والمخاطِب والسياق، وإذا جزمنا جدلاً أن المخاطِب في النص القرآني هو الله تعالى متخذاً شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، لتبليغ الخطاب، عرفنا ما يعتري هذا الخطاب من توضيح وكشف وتأويل، لأن لغة المشافهة، هي لغة التبليغ الأولى، يصحبها كثير من أدوات الإيضاح والقصد، ولذلك فإن مقصديّة الخطاب القرآني تتغير من مخاطَب عاصر التنزيل، إلى مخاطَب لم يعاصره ولم يشاهده، لتحديد طبيعة الخطاب خاصة ما تعلّق منه بالمحكم والمتشابه؛ إذ أن التمييز بينهما يعود في الأساس إلى مقتضيات السياق، أو ما صاحب الخطاب من ظروف محيطة وهي ما تسمى في حقل علوم القرآن بـ"أسباب النزول"([1]).

ويظل الخطاب القرآني يكيف أدواته بحسب متطلبات القراءة، على أن الإطار العام للفهم والتأويل لن يغيّر من كون الألفاظ هي مفاتيح استنباط الدلالة والحكم ولن يغير من صيغها المعجمية، إلا أن السياق اللغوي المحمول ضمنه هو الذي يدفع بها إلى تغيير حقولها الدلالية مع كل قراءة واعية تأخذ بمعطيات النص، ذلك أن القارئ يهتدي إلى استنباط أحكام هي من النص الديني تستجيب لمقتضيات معرفية وعلمية يؤمن بها ويعتقد في وجاهتها ونجاعتها([2]).

يقول أبو حامد الغزالي([3]): "واعلم أن كل مقيد من كلام الشارع وفعله وسكوته واستبشاره،حيث يكون دليلاً وتنبيهه بفحوى الكلام على علّة الحكم، كل ذلك بيان"([1]).

---

(1)- عبد الجليل،منقور، الخطاب والدلالة قراءة في تأويل النص القرآني، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن إتحاد كتاب العرب-دمشق العدد(105)السنة السابعة والعشرون، كانون الثاني 2007.

(2)- انظر الآمدي، سيف الدين(ت:631)هـ ، مقدمة الآمدي الإحكام في أصول الأحكام. ج1 ص15.

(3)- هو حجة الإسلام، زين الدين،أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطُّوسي الشافعي الغزّالي، صاحب كتاب (إحياء علوم الدين) توفي سنة(505)هـ .الذهبي، سير الأعلام (340/14).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو ما يقحم القارئ كطرف مساهم في استجلاء غوامض النص ويُعدّ "المحكم" رافداً مهماً في تأويل المتشابه من النصوص "وكأن القاعدة التي اتفق عليها العلماء، هي ضرورة رد المتشابه إلى المحكم: أي تفسير "الغامض" استناداً إلى "الواضح"، ومعنى هذه القاعدة أن العلماء على خلافاتهم حول هذه القضية وغيرها من القضايا، قد اتفقوا على أن النص هو معيار ذاته، فالواضح المحكم يعد بمثابة "الدليل" لتفسير الغامض المتشابه وفهمه"([2]).

فالنص القرآني في كثير من مواضع الآيات له معجمه الخاص، وهو بذلك يؤسس لتفسير ذاتي وقد أشار السيوطي إلى أن العلماء قد نصّوا على أنه من أراد تفسير الكتاب طلبه أولاً في القرآن فما وُجِدَ مجملاً في مكان فقد فُصّل في مكان آخر، وما اقتُضِب في موضع بُسِط في موضع آخر([3]).

وقد نقل الزركشي تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للآية: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ "(الأنعام:82)، فقال: الظلم هو الشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ "(لقمان:13)([4]).

---

(1)– الغزالي، أبو حامد، المستصفى في علم الأصول، (ت:505)هـ، ت:محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية – بيروت 1413، ط1، ص367.

(2)– أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي– بيروت 1996، ط3 ص178.

(3)– انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص175.

(4)– انظر: الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، (ت:794)هـ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب العلمية–بيروت، ج1، ص14–15. عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية:"الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم"، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا ترون إلى قول لقمان: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ، [سورة لقمان : 13] حديث عبد الله بن مسعود. من طريق الأعمش، رواه البخاري في صحيحه (الفتح 1: 81، 8 : 220)، بنحوه ورواه مسلم في صحيحه (2: 143، 144)، من طريق عبد الله بن إدريس، وأبي معاوية، ووكيع جميعاً عن الأعمش.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

6.1 الخطاب القرآني ودلالاته.

يمتّاز القرآن الكريم بكونه نصّاً وخطاباً إلهياً مطلقاً غير قابل للمحاكاة، وله ترتيبان ترتيب التلاوة وترتيب النزول، موافق للنظام العام الذي يحكم اللغة العربية. ومن ثم فهو بناء فكري، ولغوي محكم ومتفرد. فالقرآن الكريم خطاب ملفوظ، ونص مكتوب، تتحقق فيه مكونات العملية التواصلية التخاطبية وشروطها:

أ. المرسِل (المُخاطِب).

ب. المتلقي (المُخاطَب).

ت. الخطاب ذاته.

مما يجعل القرآن الكريم يستبطن كل المقامات الممكنة،و هذا الاهتمام بالجانب الدلالي للخطاب القرآني وما يستلزمه من إدراك لوعي الإنسان لاستجلاء أبعاد ذلك الخطاب يصلح ليكون معيارا لتقييم طبيعة مناهج المفسرين في العصر الحديث"[1].

"فالمتأمِل في الخطاب القرآني ودلالاته عند الإمام الغزالي من خلال كتابه المستصفى من علم الأصول ، يجده زاخراً بالعديد من البصمات الدلالية سواء في منطوقه أو مفهومه وقد أشار إلى ذلك الغزالي ونوّه إليه وهو يفتتح مؤلَّفه (المستصفى)، فالخطاب متعلق بالأوامر والنواهي ومتعلق بالخصوص في موضعه والعموم في موضعه،كذلك وتعلق المجازات ومواضعها أيضا وقد ذهب الغزالي إلى أن الأصوليين أوردوها في مواضع شتى وبدت مبددة في غير ما من موضع فلا يتمكن الباحث أو المسترشد أن يهتدي لها بسهولة وهو ما آل به إلى أن يستجمعها"([2]).

ودلل الأمام الغزالي على الدلالات التي يرمي الخطاب من ورائها معان، سواء تعلقت بمنطوق اللفظ أو مفهومه.

أولاً : دلالة منطوق الخطاب: يراد بالمنطوق وهو المعنى الظاهر الذي يستفاد من اللفظ مباشرة بعيدا عن المجازات والأخيلة والكنايات التي تستتر داخل الألفاظ وقد أشار الغزالي إلى ذلك بقوله «دلالة اللفظ من حيث صيغته، وبه يتعلق النظر في صيغة الأمر

---

(1)– إقبال، محمد، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط2. القاهرة 1968.

(2)– قصباوي، عبد القادر، الخطاب ودلالاته عند الغزالي، منتدى التعليم العالي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والنهي والعموم والخصوص والظاهر والمؤول والنص والنظر في كتاب الأوامر والنواهي والعموم والخصوص نظر في مقتضى الصيغ اللغوية »([1]).

ثانياً : دلالة مفهوم الخطاب: وهو بخلاف المقصود أو المراد من الدلالة الأولى، حيث أنها تحتاج منا إلى إمعان النظر فيها وتقصيها اللفظ هنا أو النص ككل، يخفي عليك أكثر مما يعطيك وقد أشار إليه الغزالي بقوله: « وأما الدلالة من حيث الفحوى والمفهوم فيشتمل عليه كتاب المفهوم ودليل الخطاب »([2]).

ثالثاً : دلالة المعنى المقتبس: يثير الغزالي مسألة المعاني الهامشية المستفادة من اللفظ من غير أن يقصد لها أحيانا ولكن عن طريق الاستنباط يتسنى لنا إدراكها وكانت البداية بدلالة الاقتضاء يراد بها تلك الدلالة المستنبطة من منطوق اللفظ وإن كان لم ينطق بها هي في باب المضمر أو المفهوم وهي على أضرب ثلاثة:-

من حيث صدق الكلام: مثاله حديث الصيام قال:صلى الله عليه وسلم«لا صيام لمن لم يبيّت الصيام من الليل»([3]) النفي الوارد في الحديث للصوم ومعلوم أن الصوم لا ينتفي بصورته بل بمعناه؛ أي لا صيام صحيح أو كامل الأجر تماما مثل: صيام اللغو أو الكلام في الجمعة فتقديره نقصان في الأجرمن لم يبيّت من بيّت بالتشديد إذا نوى ليلاً أي من لم ينو ليلاً ، وقد رجح الترمذي وقفه، وعلى تقدير الرفع فالإطلاق غير مراد، فحمله كثير على صيام الفرض لأنه المتبادر وبعضهم على غير المتعين شرعا كالقضاء والكفارة والنذر المعين والله تعالى أعلم([4]).

---

(1)- الغزالي، أبو حامد، المستصفى من علم الأصول، ص8

(2)- الغزالي، المستصفى من علم الأصول: ص (8-9).

(3)- النسائي، احمد بن شعيب(303)هـ، المجتبى حديث رقم(2342)دار احياء التراث العربي،بيروت،1930م،والترمذي،محمد بن عيسى(279)هـ،السنن رقم(730)،المكتبة الإسلاميه، أبو داود، سليمان بن الأشعث(275)هـ،السنن،رقم(2454)،دار احياء السنة النبوية، ابن خزيمة، محمد بن سليمان(311)هـ،في صحيحه رقم(1933)،المكتب الإسلامي، والحديث مختلف فيه، والصحيح أنه موقوف على عائشة وحفصة.

(4)- عبد المهدي، نور الدين، حاشية السندي على النسائي رقم(2331) تحقيق: عبد الفتاح أبو غده، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2- 1986م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تصور المنطوق به عقلا: ومثاله:ما جاء «وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً»(الأحقاف:15) وقوله أيضاً «وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ »(لقمان:14) فالإشارات المقتبسة من الآيتين تدل على أن أدنى مدة للحمل تكون ستة أشهر بطريق طرح ثلاثين شهراً وهي مدة الحمل والفصال من أربعةوعشرين شهراً وهي مدة الرضاع([1]).

مفهوم الموافقة: حيث عرفه الغزالي«فهم غير المنطوق به بدلالة سياق الكلام ومقصوده»([2]) أي الوصول إلى الدلالة المفهومة عن طريق المنطوق بها في النص وسميت دلالة الموافقة لأن الدلالة المستنبطة، المفهومة، تتوافق والدلالة المنطوقة يقول سبحانه وتعالى"ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما" (الإسراء 23) منطوق الآية يوحي بتحريم التضجر على الوالدين ومثّل له بلفظ"أف " ومفهومها يوحي بتحريم الضرب أو القتل.

وهناك مفهوم رابع هو مفهوم المخالفة الحقيقة والمجاز: ذهب الغزالي إلى القول إن الحقيقة أسبق من المجاز وعن طريق الاستعمال الكثير للمفردات، أطلق الحقيقة على اللفظ، يقول الغزالي"إذا دار لفظ بين الحقيقة والمجاز فالأصل للحقيقة إلى أن يدل الدليل أنه أراد المجاز"([3]).

7.1 العلماء ومفهوم السياق القرآني.

في الاصطلاح هو " سياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه "([4]).

وفي شرح معاني الآثار " السياق هو الأمر الذي يمكن أن يؤثر في معنى خطاب معين مما له علاقة بالخطاب ذاته"([5]).

---

(1)– الغزالي، المستصفى في علم الأصول: 9/1

(2)– الغزالي، أبو حامد، معيار العلم في المنطق: 195/2

(3)– المرجع نفسه، 35/2

(4)– مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، ط3 – 1998م

(5)– الطّحاوي، أبو جعفر، شرح معاني الآثار، تحقيق محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، ج1/ 49.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي جمع الجوامع " السياق ما سيق الكلام لأجله "([1]).

أما تعريف الباحث:- فإنه بناءً على التعريفات السابقة استنتج أن السياق هو ما سيق الكلام لأجله بحيث يتضح المقصد الذي يدل عليه النص.

بعض ما قاله العلماء حول السياق القرآني بإيجاز:

الإمام السرخسي([2]):

يبين رحمه الله دور السياق في تحديد درجة وضوح النص قائلا: " وقال بعضهم، النص يكون مختصاً بالسبب الذي كان السياق له، فلا يثبت به ما هو موجب الظاهر، وليس كذلك عندنا، فان العبرة لعموم الخطاب لا لخصوص السبب، فيكون النص ظاهراً لصيغة الخطاب نصاً لاعتبار القرينة التي كان السياق لأجلها "([3])..

أما الإمام الغزالي:

أفرد رحمه الله في المستصفى للسياق مبحثاً خاصاً هو: (فهم غير المنطوق به من المنطوق بدلالة سياق الكلام ومقصوده)كفهم تحريم الشتم والقتل والضرب من قوله تعالى" فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما" (الإسراء 23)وفهم تحريم مال اليتيم وإحراقه من قوله تعالى" إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا" (النساء 10) ([4]).

وأما الإمام ابن دقيق العيد([5]):

---

(1)- العطار، حسن بن محمد، حاشية العطار على جمع الجوامع، دار الكتب العلمية - بيروت ج1/320

(2) - أبو العباس الفضل بن عبد الواحد بن الفضل السرخسي، النيسابوري الحنفي، توفي سنة(494)هـ،الذهبي، سير الأعلام(200/14).

(3)- السرخسي، محمد، أصول السرخسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ج1 / 164

(4)- الغزالي، المستصفى، ج1/ 264

(5)- شيخ الإسلام، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مُطيع،القُشيري، المنفلوطي، المصري، المالكي والشافعي، توفي سنة(755)هـ، القرشي،محمد بن أحمد، ذيل على كتاب سير الأعلام(126/17)،تحقيق محمود الأرناووط،دار صادر ،بيروت1998م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يوضح رحمه الله تأثير السياق على فهم الخطاب الشرعي قائلا: "إنّ السِّياق طريقٌ إلى بيان المُجْملات وتعيين المحتملات وتَنْزِيل الْكَلام على الْمَقْصُود مِنْه وفَهْم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أُصول الفقه، ولم أر من تعرَّض لها في أُصول الْفِقْه بِالْكَلام عليها وتقرير قاعدتها مطوَّلة إلاّ بعض المتأخِّرين ممَّن أدركنا أصحابهم، وهي قاعدة متعيِّنة على النَّاظر وإن كانت ذات شعب على المناظر"([1]).

وأما الإمام ابن قيّم الجوزيّة([2]):

يُرشد رحمه الله إلى أهمية السياق في بيان المجمل وتخصيص العام وتقييد المطلق قائلا: السياق يُرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطعي، بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى (ذق انك أنت العزيز الكريم) الدخان (46)، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"([3]).

كما يُرشد إلى أن فهم مراد المتكلم من كلامه لا يمكن عن طريق الكلام وحده، فالسياق يساعد على ذلك، قال في هذا الإطار:" بل بحسب الكلام في نفسه وما يقترن به من القرائن الحالية واللفظية والمتكلم به وغير ذلك "([4]).

وفي هذا المعنى يقول كذلك:"والألفاظ لم تُقصد لنفسها وإنما هي مقصودة للمعاني والتوصل إلى معرفة مراد المتكلم... فإذا ظهر مراده ووُضِح بأي طريق كان العمل بمقتضاه سواء أكان بإشارة أم بكتابة أم بإماءة أم بدلالة عقلية أم بقرينة حالية أم

---

(1)– ابن دقيق ، تقي الدين العيد ، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية– القاهرة، ج3 / 52 .

(2)– الإمام، أبو عبد الله، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيُّوب الزُّرعي الدمشقي الحنبلي ، المعروف بابن قيّم الجوزيّة، توفي سنة(751)هـ، القرشي، ذيل سير الأعلام، ص88.

(3)– الجوزيّه ابن قيّم، بدائع الفوائد، ت: هشام عبد العزيز، مكتبة نزار الباز– مكة المكرمة 1996، ط1، ج4/ 9– 10 .

(4)– الجوزيّه، ابن قيّم، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ت:طه عبدالرؤوف، مكتبة الكليات– الأزهرية– القاهرة، 1968، ج 3 / 119.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعادة له مطردة لا يخل بها "[1]).

الإمام الشاطبي([2]):

اعتنى رحمه الله بأثر السياق في إدراك المراد من النص عناية كبيرة يؤكد ذلك قوله:" كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ وإلا صار ضحكة وهزءة لو اعتبر اللفظ بمجرده لم يكن له معنى معقول، فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم"([3]).

وبهذا الاعتبار لا يليق بكلام الله ورسوله أن يفهم بمعزل عن سياقه، ومن هنا أكد رحمه الله على أهمية سياق الحال حيث قال:" إن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل وهذا معلوم في علم المعاني والبيان فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم والالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها لا ينظر في أولها دون آخرها ولا في آخرها دون أولها فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف "([4]).

ويؤكد رحمه الله ما ورد في الرسالة للشافعي من كون السياق من معهود العرب في لغتهم الذي لا يمكن الاستغناء عنه في معرفة مدلولات النصوص الشرعية قائلا:" وقد أشار الشافعي في رسالته إلى هذا المعنى وأن الله خاطب العرب بكتابه بلسانها على ما تعرف من معانيها، ثم ذكر مما يعرف من معانيها اتساع لسانها وأن تخاطب بالعام مراداً به ظاهره وبالعام يُراد به الخاص ويُعرف بالسياق وبالكلام ينبئ أوله عن آخره وآخره عن أوله وأن تتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون اللفظ كما تعرف بالإشارة

---

(1)- الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج2 / 218.

(2)- العالم الزاهد، العابد الكبير أبو عبد الله محمد بن سليمان بن محمد المعافري، الشاطبي(672)هـ .القرشي، ذيل سير أعلام النبلاء 113/17

(3)- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق مشهور آل سلمان، دار ابن عفان–القاهرة، ج 3/ 153

(4)- المرجع نفسه، ج3 /413

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتُسمّى الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، والمعاني الكثيرة بالاسم الواحد، ثم قال: فمن جهل هذا من لسانها، وبلسانها نزل الكتاب وجاءت به السنة، فتكلف القول في علمها، وكانت موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة، وكان خطئه غير معذور إذا نطق فيما لا يُحيط عليه بالفرق بين الصواب والخطأ فيه"([1]).

الإمام الشوكاني([2]):

ذكر رحمه الله أهمية السياق عند تناوله لمسائل تخصيص العموم وعنون المسألة(التخصيص بالسياق) وقال في هذا الموضوع:" قد تردد قول الشافعي في ذلك وأطلق الصيرفي جواز التخصيص به ومثله بقوله سبحانه: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ ... فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ "(آل عمران:173)، وكلام الشافعي في الرسالة يقتضيه، فإنه بوب لذلك باباً فقال باب الصنف الذي قد بين سياقه معناه وذكر قوله سبحانه: "وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ " (الأعراف 163)، قال فإن السياق أرشد إلى أن المراد أهلها وهو قوله:"إذ يعدون في السبت" (الأعراف: 163)، قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد في شرح الإلمام: نص بعض الأكابر من الأصوليين على أن العموم يُخص بالقرائن القاضية بالتخصيص.قال: ويشهد له مخاطبات الناس بعضهم بعضاً ، حيث يقطعون في بعض المخاطبات بعدم العموم بناء على القرينة، والشرع يخاطب الناس بحسب تعارفهم قال ولا يشتبه عليك التخصيص بالقرائن"([3]).

والناظر في هذه الشواهد وما تدل عليه من تأكيدات واضحة على وجوب اعتبار دلالة السياق في الكشف عن مراد الشارع ضمن بحث الأصوليين في العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والحقيقة والمجاز والإجمال والبيان وغيرها، يدرك أهمية

---

(1)– الشاطبي، الموافقات، ج4 / 117.

(2)– الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله:(1250)هـ، عاش بهمرة شوكان أحدى قبائل خولان العربية من صنعاء. الشوكاني ،البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي 478/1.

(3)– الشوكاني، إرشاد الفحول لتحقيق الحق من علم الأصول، ت: محمد سعيد البدري، دار الفكر –بيروت 1992، ج242/1،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الموضوع البالغة.

لاهتمام العلماء بالسياق تجليات أهمها:

1- القصد إلى إدراك المراد من الخطاب الشرعي وليس المعنى الظاهر:

فالغاية التي يهدف إليها علماء الأصول هي الوصول إلى مراد الشارع وقصده.قال ابن القيّم رحمه الله:" التعويل في الحكم على قصد المتكلم والألفاظ لم تقصد لنفسها وإنما هي مقصودة للمعاني والتوصل إلى معرفة المراد"، وكما يقول أيضاً :" والألفاظ ليست تعبدية، والعارف يقول: ماذا أراد، واللفظي يقول: ماذا قال "، ومن هنا يكون فهم الفقيه أخص من غيره، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا، تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم "([1]).

وقال الشاطبي رحمه الله في ذلك:" كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو التفقه في العبارة بل التفقه في المعبّر عنه وما المراد "([2]).

2- الفهم الدقيق لمضمون الخطاب الشرعي:

" لقد ظهر أثر اعتبار السياق في فهم النصوص عند الأصوليين على المستوى العملي أكثر من ظهوره على المستوى الفكري، تكشف عن ذلك مباحث منها العام والخاص،حيث أن العام يُراد به العموم كقوله تعالى:" الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يُميتكم ثم يحييكم" (الروم:40)والخاص يُراد به الخصوص كقوله:" يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك"(المائدة:67).

والمنطوق والمفهوم، فالمنطوق هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق فإن أفاد معنى لا يحتمل غيره، مثل قوله تعالى" فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة" (البقرة:196)

والمفهوم: هو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق، وقد يكون مفهوم موافقة بمعنى يوافق حكمه المنطوق، ويسمى فحوى الخطاب كدلالة:" فلا تقل لهما أُف" (الإسراء:23) على تحريم الضرب لأنه أشد وإن كان مساوياً سمي لحن الخطاب أي كدلالة" إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً "(النساء:10) على تحريم الإحراق لأنه مساوٍ

---

(1)- الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين :ج1/ 217-219

(2)- الشاطبي، الموافقات، ج3/ 410.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للأكل في الإتلاف.

والثاني قد يكون مفهوم مخالفة: يخالف حكمه المنطوق مثل:" يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا" (الحجرات:6) مفهومه أن غير الفاسق لا يجب التبين في خبره فيجب قبول خبر الواحد العدل...وا إلى غير ذلك من هذه المباحث. وهذا ما توضحه لنا النصوص التي مثلنا بها لاهتمام الأصوليين بموضوع السياق ويؤكده الشاطبي في الموافقات بقوله عن العموم"العموم إنما يعتبر بالاستعمال، ووجوه الاستعمال كثيرة، ولكن ضابطها مقتضيات الأحوال التي هي ملاك البيان "([1]).

ومعلوم أن غاية الفهم الدقيق لمضمون الخطاب الشرعي لا يمكن تحقيقها إلا باستثمار مجموعة من الأدوات من بينها السياق.

قال إمام الحرمين([2]): " المقصود من النصوص الاستقلال بإفادة المعاني على قطع مع انحسام جهات التأويلات وانقطاع مسالك الاحتمالات وهذا وا ٕن كان بعيدا حصوله بوضع الصيغ ردا إلى اللغة فما أكثر هذا الغرض مع القرائن الحالية والمقالية"([3]).

الخلاصة:

تبيّن مما سبق " أن اعتبار السياق منهج حاضر عند المحققين من علماء الإسلام في جميع العلوم التي تتخد النص الشرعي موضوعاً لها بقصد فقه معناه، وتنزيله على محله خاصة علم أصول الفقه، وما حصل من الركود في علوم الشريعة في العصور الأخيرة كان نتيجة للوقوع في الغفلة عن هذا المنهج(دراسة السياق القرآني)، فراجت غرائب الأحكام واشتهرت شواذ الأعمال،فصار منهج الفهم يقوم على النظر في النص الشرعي منفرداً عن غيره معزولاً عما سواهولم يكن ذلك منهج أهل التحقيق المعتّد بهم في علوم الإسلام المختلفة"([4]).

---

(1)– الشاطبي، الموافقات، ج3 / 271

(2)– شيخ الشافعية، أبو محمد،عبد الله بن يوسف بن حيّويه الطّائي السّنبسي، من كبار الشافعية، والد إمام الحرمين، توفي سنة(438)هـ،الذهبي، سير الأعلام (403/13).

(3)– الجويني، محمد، البرهان في أصول الفقه،، تحقيق صلاح بن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ،ط1 ،1997،ج1/ 278.

4 – الفيومي، عاطف عبد المعز ، ، أثر السياق في فهم الخطاب الشرعي،شبكة المختار ، ص43.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

أنواع الخطاب في سورة البقرة

مَن "تأمَّل الخِطاب القُرآنِيَّ في أسلوبه وبلاغته، وفي تصريفه وتنويعه استبانَ له وجهٌ بديعٌ من أوجه الإعجاز القُرآني، وخصيصةٌ من خصائصه الأكيدة، وبيان ذلك في شموليَّة الخِطاب القُرآنيِّ لجميع أصناف المخاطَبين، على اختلاف أجناسهم، وأمكنتهم ومِلَلِهم.

وهذا فارقٌ بديعٌ في نوعيَّة الخِطاب القُرآني البليغ عن غيره من سائر الخِطابات، حيث إنَّنا إذا نظَرْنا إلى الخِطاب البشريِّ – مهما بلَغ من بلاغته وروعته، وبيانِه وفصاحته فإنَّه لا يُعنَى بجميع الجوانب الإنسانيَّة في ندائه، من حيثُ مخاطبَتُه للعقل والعاطفة معًا، أو مخاطبتُه للعامَّة والخاصَّة كذلك؛ إنه ربَّما يُعْنَى بجانبٍ على حِساب جانبٍ آخَر، ولا يقيمُ الميزان الحقَّ بينهما، ثَمَّ فهو خِطابٌ بشريٌّ يعتَرِيه النقصُ والخطأ، ولا يصلُ إلى ذروة الكمال أبدًا، مهما أُوتِي صاحبه من الفَصاحة والبَيان.

ومن خَصائص هذا القُرآن البلاغيَّة وكماله التشريعي أنَّه نوَّعَ بين أساليب الخِطَاب فيه للنَّفس البشريَّة، ومِن ثَمَّ نوَّع أيضًا المجالات المخاطَبِ بها"(1).

1.2 خطاب الله تعالى إلى الملائكة.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" قال تعالى: "(البقرة:30).

قال الطاهر بن عاشور:"الظاهر أن خطابه تعالى هذا للملائكة كان عند إتمام خلق آدم عند نفخ الروح فيه أو قبل النفخ والأول أظهر فيكون المراد بالمخبَر عن جعله خليفة هو ذلك المخلوق ويجوز أن يكون خطابهم بذلك قبل خلق آدم، وعلى الوجوه كلها

(1)– الفيومي، عاطف عبد المعز، الخطاب القرآني وتنوعه، شبكة المختار، 2011م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكون اسم الفاعل في قوله تعالى:(جاعل) للزمن المستقبل لأن وصف الخليفة لم يكن ثابتاً لآدم ساعتئذٍ"([1]).

"وخطاب الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني، ليعلم عباده المشورة فيما بينهم، فهم مفطورون على الصدق والنزاهة من كل مؤاربة، فلما نشأ ذلك في نفوسهم، أفصحت عنه دلالة تدل عليه يعلمها الله تعالى من أحوالهم، لا سيما إذا كان من تمام الاستشارة أنيُبدي المستشار ما يراه نصحاًفيكون تعليماً في قالب تكريمولِيُعلّم عباده من ذلك المشورة فيما بينهم"([2]).

أما أبو حيان الأندلسي فقال:

"(**وإذ قال ربك للملائكة**): مناسبتها لما قبلها أنه لما امتن على بني أدم بخلق ما في الأرض لهم، وكان قبله إخراجهم من العدم إلى الوجود، أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتن عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه وجعله خليفة وإسكانه دار كرامته، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه وتنبيهاً على مكانه واختصاصه بالعلم الذي به كمال الذات وتمام الصفات، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، وشرف الفرع بشرف الأصل"([3]).

"وهذا تنويع في الخطاب، وخروج من الخطاب العام إلى الخطاب الخاص، وفي ذلك أيضاً إشارة لطيفة إلى أن المقبل عليه بالخطاب له الحظ الأعظم والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها، فهو صلى الله عليه وسلم على الحقيقة الخليفة الأعظم، ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه وجعلهأفضل أنبيائه أمّ بهم ليلة إسرائه، وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائهفهو المقدم في أرضه وسمائه وفي داري تكليفه وجزائه"([4]).

---

(1)- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر- تونس 1997م، ج1/ص399

(2)- المرجع نفسه، ج1، ص399.

(3)- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت:عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية- بيروت 2001م، ط1، ص174.

(4) – الألوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، (ت:1854)، ت:علي عطية، دار الكتب العلمية – بيروت 2003م، ط1، 253/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول صاحب الكشّاف وقد وافقه الرأي الإمام الشوكاني: "لأي غرض أخبرهم بذلك؟ قال: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أُجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم. وقيل: ليعلّم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة أو الحكمة تعظيم شأن المجهول، وإظهار فضله، بأن بشّر بوجود سكان ملكوته، ونوه بعظيم شأن المجعول بذكره في الملأ الأعلى قبل إيجاده، ولقبه بالخليفة"([1]).

وبناءً على أراء علماء التفسير السابقة، أجد أن دلالة خطاب الله تعالى إلى ملائكته تتلخص في حكمتين اثنتين هما:

الأولى: أن الله تعالى يُريد من ذلك تعليم عباده المؤمنين مبدأ الشورى في كل الأمور، وأن الإنسان مهما أُوتي من العلم فلا بدّ له من المشورة.

والثاني: تعظيم شأن المخلوق المجهول، الذي سوف يخلقه الله تبارك وتعالى، وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد، وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير.

2.2 خطاب الله تعالى إلى بني إسرائيل

قال تعالى: "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ "(البقرة:40)

وقال تعالى: "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ " (البقرة:47)

إن المستعرض لتاريخ بني إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم، ومن الجحود المنكر المتكرر الذي قابلوا به هذا الفيض المدرار. وهنا يذكرهم الله بنعمته التي أنعمها عليهم إجمالاً. يذكرهم بها ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم معه – سبحانه – كي يتم عليهم النعمة ويمد لهم في الآلاء، حيث اتفق المفسرون على أن

---

(1) – الزمخشري، الكشاف، ص79، و الشوكاني، فتح القدير، دار الفكر – بيروت، ص99، وطنطاوي، الوسيط، ص54

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطاب كان خطاب الترغيب والترهيب، مخاطباً به الحاضرين كما لو أنهم الذين تلقوا النعم في زمن موسى عليه الصلاة والسلام، بتغليب الأخلاف على الأسلاف.

قال الرازي:" (يا بني إسرائيل) خطاب لجماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب عليه السلام في أيام محمد صلى الله عليه وسلم. وفي النعم المخصوصة ببني إسرائيل قال بعض العارفين: عبيد النعم كثيرون وعبيد المنعم قليلون، فالله تعالى ذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم ولما آل الأمر إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ذكرهم بالمنعم فقال:" فاذكروني أذكركم " (البقرة:152) فدل ذلك على فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلّم على سائر الأمم"([1]).

ثم هذا افتتاح الكلام مع اليهود، والنصارى فجرد ذكرهم هنا خصوصاً، إذ قد سبق الكلام مع المشركين والمنافقين، وبقي الكلام مع اليهود والنصارى، فهزهم بالإضافة إلى أبيهم، فكأنه قيل: يا أبناء النبي يعقوب، فسر إضافتهم إلى أبيهم، تشريفاً لهم وتكريماً، وحثاً لهم على أن يكونوا مثل أبيهم في الخير، لأنهم بعدما أُوتوا من البيان الواضح والدليل اللائح، المذكور ذلك في التوراة الإنجيل، من الإيفاء بالعهد والإيمان بالقرآن، ظهر منهم ضد ذلك بكفرهم بالقرآن ومن جاء به([2]).

وقال صاحب الكشاف:" وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به من أهل الكتاب، لمعرفتهم به وبصفته، فقد بشّرت به أنبيائهم، وذكر في كتبهم، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه والمستفتحين على الذين كفروا به. وكانوا يعدون أتباعه أول الناس كلهم، فلما بُعث كان أمرهم على العكس"([3]). انتهى..

" ثم أقبل عليهم بالنداء ليحركهم لسماع ما يرد عليهم من الأوامر والنواهي فكان خطاب بني إسرائيل جميعا، بتغليب أخلافهم على أسلافهم، لجريان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة، فإن الخطابات السابقة لأسلافهم محكية داخلة في حيز القول المقدر قبل (لا تعبدون)، كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم، فنعيت هي عليهم، وإن جُعل

---

(1) – الرازي، محمد عمر، التفسير الكبير، الملقب بفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي– بيروت2000م، ط1، ص58، الأندلسي، البحر المحيط ص219.

(2) – الأندلسي، البحر المحيط، ج173/1.

(3)– الزمخشري، الكشاف: ج1، ص84

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خطاباً لليهود المعاصرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف، كما أنه تعميم للتولي فينزل منزلة الأسلاف للتشديد في التوبيخ"([1]).

أعيد خطاب بني إسرائيل بطريق النداء مماثلاً لما وقع في خطابهم الأول لقصد التكرير للاهتمام بهذا الخطاب وما يترتب عليه، فإن الخطاب الأول قصد منه تذكيرهم بنعم الله تعالى ليكون ذلك التذكير داعية لامتثال ما يرد إليهم من الله من أمر ونهي على لسان نبيه (صلّى الله عليه وسلّم) غير أنه لما كان الغرض المقصود من ذلك هو الامتثال كان حق البلاغة أن يفضي البليغ إلى المقصود ولا يطيل في المقدمةوا ٍنما يلم بها إلماماً ويشير إليها إجمالاً ، تنبيهاً بالمبادرة إلى المقصود على شدة الاهتمام به.

فكان الإجمال في المقدمة قضاء لحق صدارتها بالتقديم وكان الإفضاء إلى المقصود قضاء لحقه في العناية، والرجوع إلى تفصيل النعم قضاء لحقها من التعداد، فإن ذكر النعم تمجيد للمنعم وتكريم للمنعم عليه وعظة له ولمن يبلغهم خبر ذلك تبعث على الشكر.

والنعمة هنا مراد بها جميع النعم لأنّه جنس مضاف، فله حكم الجمع كما في قوله تعالى:"يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم"(البقرة: 40).

وقوله تعالى:"وأني فضلتكم على العالمين" عطف على (نعمتي) أي واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين، وهذا التفضيل نعمة خاصة فعطفه على (نعمتي) عطف خاص على عام وهو مبدأ لتفصيل النعم وتعدادها وربما كان تعداد النعم مغنياً عن الأمر بالطاعة والامتثال لأن من طبع النفوس الكريمة امتثال أمر المنعم لأن النعمة تورث المحبة([2]).

---

(1)–أبو السعود، محمد بن محمد ، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (ت:982) هـ ، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط1–2010، ص123.

(2)– انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير :ج1، ص481، وانظر الزمخشري، الكشاف:ج1، ص130.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكذلك تفضيل بني إسرائيل على جميع أمم عصرهم؛ لما جمع لهم من المحامد التي تتصف بها القبائل، والأمم ما لم يجمعه لغيرهم، وهي: شرف النسب، وكمال الخلق، وسلامة العقيدة، وسعة الشريعة، والحرية، والشجاعة، وعناية الله تعالى بهم في سائر أحوالهم، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: "وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين "(المائدة:20) وهذه الأوصاف ثبتت لأسلافهم في وقت اجتماعها، وقد شاع أن الفضائل تعود على الخلَف بحسن السمعة، وإن كان المخاطبون يومئذ لم يكونوا بحال التفضيل على العالمين، ولكنهم ذكروا بما كانوا عليه، فإن فضائل الأمم لا يلاحظ فيها الأفراد ولا العصور، فالنعمة على الأجداد نعمة على الأحفاد. ووجه زيادة الوصف بقوله:" التي أنعمت عليكم " في أختها الأولى([1]).

(يا بني إسرائيل) خطاب لذرية يعقوب، وفي ذريته انحصر سائر الأمة اليهودية، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول يا أيها اليهود لكونه ترغيباً لهم بإتباع أبيهم؛ ولأن من كان متبعاً دين اليهودية من غير بني إسرائيل كحمير لم يعتد بهم لأنهم تبعٌ لبني إسرائيل فلو آمن بنو إسرائيل بالنبي صلّى الله عليه وسلّم، لآمن أتباعهم لأن المقلد تَبع لمقلده، ولأن هذا الخطاب للتذكير بنعم أنعم الله بها على أسلافهم، وكرامات أكرمهم بها فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب، وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم، وعامتهم، لأن ما خوطِبوا به هو من التذكير بنعمة الله على أسلافهم وبعهد الله لهم. وكذلك نجد خطابهم في الأغراض التي يراد منها التسجيل على جميعهم يكون بلحوقه "أهل الكتاب "(آل عمران: 64) أو بوصف اليهود " يا أيها الذين هادوا"(الجمعة:6) أو بوصف النصارى، فأما إذا كان الغرض التسجيل على علمائهم نجد القرآن يعنونهم بالوصف (الذين أوتوا الكتاب آتيناهم الكتاب) (البقرة:121).

وقد يستغني عن ذلك بكون الخبر المسوق مما يناسب علماءهم خاصة مثل قوله تعالى: "وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم

---

(1) – ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص482

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَعْلَمُونَ "(البقرة: 75) وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً "(البقرة: 41) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ "(البقرة:42)"(1).

وأما سيّد في الظلال فيقول:

"هذا الدرس هو الشطر الأول من هذه الجولة الواسعة مع بني إسرائيل، حيث يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل في تذكيرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل. مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد موسى – عليه السلام – وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متحدة الجبلة.

ثم يُذكرهم بما كان منهم بعد ذلك من انحرافات متوالية، ما يكاد يردهم عن واحدة منها حتى يعودوا إلى أخرى، وما يكاد يعفو عنهم من معصية حتى يقعوا في خطيئة، وما يكادون ينجون من عثرة حتى يقعوا في حفرة"(2).

وإضافتهم إلى أبيهم إسرائيل تشريف لهم وتكريم، وحث لهم على الامتثال لأوامر الله ونواهيه، ويستعمل مثل هذا التعبير في مقام الترغيب والترهيب، بناء على أن الحسنة في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوة أحسن، والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أسوأ،ففي هذا النداء خير داع لذوي الفطر السليمة منهم إلى الإِقبال على ما يرد بعده من التذكير بالنعمة، واستعمالها فيما خلقت له"(3).

من خلال ذلك نستنتج أن الخطاب كان واضحاً كل الوضوح بأنه موجه إلى اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص، لما في الخطاب من تعريض بأن يجب أن يكونوا أول المؤمنين به– صلى الله عليه وسلم– من أهل زمانهم من اليهود، وبدعوته لمعرفتهم السابقة به.

ثم أن الخطاب جاء هنا باهتمام بالغ من الجليل سبحانه وتعالى يذكرهم بنعمه على أسلافهم وبالكرامات التي أكرمهم بها، من أجل الامتثال إلى ما يرد إليهم من الله

---

(1) – ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص484

(2) – قطب، في ظلال القرآن، ت(1966)، دار الشروق، ص 35

(3)– طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط، (ت:2010)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة– القاهرة 1997، ط1، ص66.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى من أوامر ونواهي على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، لأن النعمة على الأجداد نعمة على الأحفاد آثار تظهر.

ومن بلاغة الخطاب القرآني ولفتاته الجميلة، شمول الخطاب بلفظ العموم" يا بني إسرائيل" ترغيباً لهم بالدعوة خصهم بالخطاب، ثم إنه في موضع آخر جاء الخطاب للناس كافة فخصهم بخطاب" يا أيها الناس أعبدوا ربكم...".

لأن هناك قبائل تتبع دين اليهود من غير بني إسرائيل، فلم يلقهم الخطاب اعتباراً بسبب أنه لو آمنت بنو إسرائيل لآمن أتباعهم، فكان الخطاب عاماً وشاملاً لعلمائهم وعامتهم ولبني إسرائيل وأتباعهم.

والخلاصة:

"إن خطاب الله تعالى جاء لبني إسرائيل لتذكيرهم بأن النعم على الأجداد هي نعم على الأحفاد، تستوجب الطاعة والامتثال لأمر الله تعالى، ثم للتنبيه على عظيم الأمر المدعو له، فجاء النداء لإثارة الانتباه، والمبالغة، ودعوتهم للإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم أمر جلل لا يستقيم إسلام المرء دونه.

ثم أعيد الخطاب بطريق النداء لقصد التكرير والاهتمام بهذا الخطاب وما يترتب عليه، فجاء بأداة النداء«يا» لنداء البعيد، لمناداة من سها وغفل وإن قرُب. تنزيلاً له منزلة من بعُد، فإذا نُودي به القريب المُفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جداً "(1).

3.2 خطاب الله تعالى إلى الناس عامة.

"لقد خاطَب الله – سبحانه وتعالى – بصِيغة العُموم فـي بعض آيـات القُـرآن، وخاطَب الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام في بعضٍ آخَر، وخاطَب أصنافَ الناس من المؤمنين والكفَّار والمشركين، وأشار إلى المنافقين في آياتٍ أخرى، وهذا الأمر يُعلَم بالتتبُّع والاستِقراء لآيات القُرآن الكريم.

ونحن إذا تأمَّلْنا في دِقَّة الجانب الخِطَابي الذي خُوطِب به النَّاس عامَّة، والمؤمنون خاصةً؛ وجدْنا أنَّ القُرآن يدعو إلى المَطالب العالية، والفضائل السَّامية،

---

(1) – ابن عاشور، التحرير والتنوير: ج1، ص483، الزمخشري، الكشاف :ج1، ص89.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتشريعات الهادية الموجِّهة إلى كلِّ خير، والدعوة إلى هذه المطالب والفضائل، والأخلاق والتشريعات في الأسلوب الخِطابيِّ القُرآني لا تقِف أمام نوعٍ واحد، أو صورةٍ واحدة من صور الدَّعوة، فكان بذلك عظيم الهداية والإرشاد للقلوب الغافلة، والعقول الحائرة، والنُّفوس الضالَّة"([1]).

وهنا نَقِف وُقفةً قرآنيَّة مع نوعٍ من أنواع الخِطاب القُرآنيِّ، وشموليَّته لأصناف المخاطبين، بقوله تعالى" يا أيها الناس" وبيان ذلك فيما يلي:

باستِقْراء آيات سورة البقرة نجد أنَّ الله – تعالى – قد وجَّه الخِطَاب لعُموم النَّاس في غير موضعٍ من السورة، ولكلٍّ خِطاب فيها له هدفُه ومقاصده.

1- قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة: 21).

2- وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا" (البقرة:168).

"حرف النداء "يا" هو أكثر حروف النداء استعمالاً، وهي لنداء البعيد، وقد يُنادى بها القريب لمُلحظ بلاغي، ولكن كثيراً من العلماء ذهب إلى أنها وُضعت لنداء البعيد، قال الزمخشري (هي لنداء البعيد، أو من هو بمنزلته من نائم أو ساهٍ، فإن قرُب، فإذا نُودي بها من عداهم فلحرص المنادى عليه، ومفاطنته لما يدعوه وإن الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جداً)"([2]).

الالتفات: أسلوب بلاغي معروف عند أهل اللغة، وقع استعماله في كتاب الله كثيراً لم يغفل العلماء التنبيه إليه وإلى أسرار استعماله كأسلوب يعتبر من أساليب التفنن البلاغي، ينبئ عن قدرة المتكلم على إجادة التصرف في الكلام.

قال: أبو السعود عند قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة: ٢١)، تناولت الآيات السابقة لهذه الآية

---

(1)– الفيومي، عاطف عبد المعز، مجالات الخطاب القرآني، شبكة الألوكة، (2011).

(2)– عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان–عمان 1989، ط2، ص163، والجوزيّ، عبد الرحمن، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي– بيروت 1404، ط3 ص47.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنواع الناس وأصنافهم على سبيل الغيبة، ثم نجد النص القرآني انتقل من ذلك إلى الخطاب الواضح في الآية الكريمة، وذلك لأنه

خطاب لجميع من يعقل، قاله ابن عباس لأن دعوى الخصوص تحتاج إلى دليل، ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها،هو أنه تعالى لما ذكر المكلفين من المؤمنين و الكفار والمنافقين وصفاتهم وأحوالهم وما يؤول إليه حال كل منهم، انتقل من الإخبار عنهم إلى خطاب النداء، وهو التفات فيه هز للسامع وتحريك له، إذ هو خروج من صنف إلى صنف،وليس هذا انتقالاً من الخطاب الخاص إلى الخطاب العام([1]).

"أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزا لهم إلى الإصغاء، وتوجيها لقلوبهم نحو التلقي، وجبرا لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب"([2])

والسر في اختيار الربوبية"ربكم"لأن من شأن التذكير بالنعم أن يُحمل على الطاعة، وهو من سياق تعداد النعم، فناسب ذكره للدلالة أن توحيد الربوبية طريق لتوحيد الألوهية.

فالله تعالى قد أقبل عليهم بالخطاب، وهو من باب الالتفات،الذي هو فنّ من الكلام جزل،فيه هزّ وتحريك من السامع، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة.

ولما استوفى أحوالاً للمؤمنين وأضدادهم من المشركين والمنافقين لا جرم تهيأ المقام لخطاب عمومهم بما ينفعهم إرشاداً لهم ورحمةً بهم لأنه لا يرضى لهم الضلال ولم يكن ما ذكر آنفاً من سوء صنعهم حائلاً دون إعادة إرشادهم، والإقبال عليهم بالخطاب ففيه تأنيس لأنفسهم بعد أن هددهم ولامهم وذم صنعهم ليعلموا أن الإغلاظ عليهم ليس إلا حرصاً على صلاحهم وأنه غني عنهم([3]).

---

(1)–انظرأبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ص58، انظر الأندلسي، البحر المحيط ص109، انظر الألوسي، روح المعاني ص203

(2)– البيضاوي، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر– بيروت، ص215

(1)– انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير ص318،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمقصود بالنداء من قوله ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الإقبال على موعظة نبذ الشرك وذلك هو غالب اصطلاح القرآن في الخطاب ب(يأيها الناس)، وقرينة ذلك هنا قوله ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 22) وافتتح الخطاب بالنداء تنويها به.

فأداة النداء " يا " هي أكثر حروف النداء استعمالاً، فهي أصل حروف النداء

و " أي " اسماً مبهماً لكن يزول إبهامه بالاسم المقصود بالنداء الذي يأتي بعده.

و " ها " المتصلة به مؤكدة للتنبيه المستفاد من النداء.

و " العبادة " الخضوع البالغ الغاية([1]).

وقد كثر النداء في القرآن الكريم بهذه الطريقة لما فيه من التأكيد والمبالغة الذي كثيراً ما يقتضيه المقام، لأن كل ما نادى الله تعالى له عباده – من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، أمور عظام، وخطوب جسام، عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، فاقتضت الحال أن يُنادوا بالآكد الأبلغ([2]).

وفي ذكره تعالى باسم الرب وإضافته إلى المخاطبين، تقوية لداعية إقبالهم على عبادته، فإن الإنسان إذا اتجه بفكره إلى معنى كون الله مالكاً له، أو مربياً له وتذكر ما يحفه به من رفق، وما يجود به عليه من إنعام، لم يلبث أن يخصه بأقصى ما يستطيع من الخضوع والخشوع والإجلال، لهذا ختم الله تعالى الآية بقوله" لعلكم تتقون" أي: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين جوار الله تعالى نبه على أن التقوى منتهى درجات السالكين، وهو التبرّي من كل شيءٍ سوى الله تعالى إلى الله، وأن العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته، ويكون ذا خوف ورجاء([3]).

" لعلكم تتقون" متعلق بقوله تعالى"أعبدوا ربكم" وذلك لأجل العبادة، إذ المعنى أنهم أُمروا بالعبادة على رجائهم عند حصولها حصول التقوى لهم.

" والذين من قبلكم" فخلق أصولهم يجري مجرى الإنعام على فروعهم، فذكّرهم عظيم إنعامه تعالى عليهم وعلى أصولهم بالإيجاد، حيث"لعل" للترجي، لأن الترجي لا

---

(1) – انظر طنطاوي، الوسيط: ص37

(2) – انظر الزمخشري ، الكشاف: 90/1

(3) – انظر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 215/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقع من الله تعالى، فهي متعلقة بقوله:"أعبدوا ربكم" فإذا عبدتم ربكم رجوتم التقوى، وهي التي تحصل بها الوقاية من النار والفوز بالجنة([1]).

قال الزمخشري:"إن الله تعالى خلق عباده لِيَتَعَبَّدَهم بالتكليف، فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا لتَرَجّح أمرهم بين الطاعة والمعصية، لأنهم مختارون([2]).

وإفراد اسم الرب دل على أن المراد رب جميع الخلق وهو الله تعالى، إذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالإفراد والإضافة إلى جميع الناس إلا الله.

فجاء الخطاب هنا لتوجيه الناس إلى الأمر الذي خلقوا من أجله وهو عبادة الله دون ما سواه، وبيان البراهين الساطعة التي تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته.

وسر أضافتهم للرب"ربكم" هو أن المشركين معتقدين ربوبيتين:ربوبية الله، وربوبية آلهتهم. فكان قوله"الذي خلقكم" صفة موضحة مميزة لربكم على الحقيقة، وهي صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم([3]).

4.2 خِطاب الله تعالى للمؤمنين والصالحين:

لقد جاء الخِطاب بصفة الإيمان خاصَّة في القُرآن في حوالي تسعة وثمانين موضعاً، وكذا خِطابه لسائر الصالحين والمؤمنين، وفي البقرة خاصة أحدى عشر موضعاً ، وذلك ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية.

ومن الأمثلة في سورة البقرة على سبيل المثال لا الحصر:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: 104].

"يا أيها الذين آمنوا ": هذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة، بالنداء الدال على الإقبال عليهم، وأن هذا خطاب مدح للمؤمنين([4]) وذلك أن أول نداء أتى عامًّا: " يا أيها الناس اعبدوا ربكم "وثاني نداء أتى خاصاً :

---

(1)- انظر الأندلسي، البحر المحيط : 111/1-112

(2)- الزمخشري، الكشاف: 92/1

(3)- الزمخشري، الكشاف : 90/1

(4)-انظر الجوزي ،عبد الرحمن بن أبي الحسن،(597)هـ، المدهش، تحقيق: مروان قباني، دار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" يا بني إسرائيل اذكروا" وهي الطائفة العظيمة التي اشتملت على الملتين: اليهودية والنصرانية، وثالث نداء لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين. فكان أول نداء عامًّا، أُمروا فيه بأصل الإسلام، وهو عبادة الله. وثاني نداء، ذكروا فيه بالنعم الجزيلة، وتعبدوا بالتكاليف الجليلةوخو ّ فوا من حلول النقم الوبيلة وثالث نداء: علموا فيه أدباً من آداب الشريعة مع نبيهم، إذ قد حصلت لهم عبادة الله، والتذكير بالنعم، والتخويف من النقم، والاتعاظ بمن سبق من الأمم، فلم يبق إلا ما أُمروا به على سبيل التكميل، من تعظيم من كانت هدايتهم على يديه. والخطاب بيا أيها الذين آمنوا متوجه إلى من بالمدينة من المؤمنين، قيل: ويحتمل أن يكون إلى كل مؤمن في عصره. وروي عن ابن عباس: أنه حيث جاء هذا الخطاب، فالمراد به أهل المدينة، وحيث ورد يا أيها الناس، فالمراد أهل مكة([1]).

والراجح أنه للناس كافة، لأن الدعوة ليست خاصة لا لأهل مكة ولا لأهل المدينة.

يقول الفخر الرازي: أن الآية لا تخرج عن مسألتين:

المسألة الأولى: إن الله تعالى خاطب المؤمنين بقوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا "في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن. قال ابن عباس: وكان يخاطب في التوراة بقوله: يا أيها المساكين فكأنه سبحانه وتعالى لما خاطبهم أولاً بالمساكين أثبت المسكنة لهم آخراً حيث قال: " وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة " (البقرة:61)، وهذا يدل على أنه تعالى لما خاطب هذه الأمة بالإيمان أولاً فإنه تعالى يعطيهم الأمان من الخلود و العذاب في النار يوم القيامة، وأيضاً فإن اسم المؤمن أشرف الأسماء والصفات، فإذا كان يخاطبنا في الدنيا بأشرف الأسماء والصفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات([2]).

المسألة الثانية: أنه لا يبعد في الكلمتين المترادفتين أن يمنع الله من أحدهما ويأذن في الأخرى، فلا يبعد أن يمنع الله من قوله: " راعنا " ويأذن في قوله:" انظرنا "

الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2-1985م، ص2.

(1) – انظر الأندلسي، البحر المحيط: ص 440-441.

(2)– انظر الرازي، التفسير الكبير: ص 260.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وا ٕن كانتا مترادفتين، ولكن جمهور المفسرين على أنه تعالى إنما منع من قوله: " راعنا " لاشتمالها على نوع مفسدة([1])ثم ذكروا فيه وجوهاً .

أحدها: كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله، واليهود كانت لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه هذه الكلمة وهي «راعينا» ومعناها: اسمع لا سمعت، فلما سمعوا المؤمنين يقولون: راعنا افترضوه وخاطبوا به النبي وهم يعنون تلكلمسبّ ة، فنهي المؤمنون عنها وأمروا بلفظة أخرى وهي قوله:" انظرنا"، ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في سورة النساء:" و َع َص َي ْن َا واسمع غ َي ْر َ م ُس ْم َع ٍ وراعنا ل َي ّا ً ب ِأَلْس ِن َت ِه ِم ْ و َ ط َع ْن ا ً في الدين"(النساء: 46)، وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضرين عنقه، فقالوا: أو لستم تقولونها([2])؟ فنزلت هذه الآية.

وثانيها:هذه الكلمة وا ٕن كانت صحيحة المعنى إلا أن أهل الحجاز ما كانوا يقولونها إلا عند الهزؤ والسخرية، فلا جرم نهى الله عنها.

وثالثها: أن اليهود كانوا يقولون: راعينا أي أنت راعي غنمنا فنهاهم الله عنها.

ورابعها: أن قوله: «راعنا» مفاعلة من الرعي بين اثنين، فكان هذا اللفظ موهماً للمساواة بين المخاطبين كأنهم قالوا: أرعنا سمعك لنرعيك أسماعنا، فنهاهم الله تعالى عنه وبين أن لا بد من تعظيم الرسول عليه السلام في المخاطبة([3]).

"لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا " قال صاحب البحر المحيط: بدأ بالنهي، لأنه من باب الترك، فهو أسهل. ثم أتى بالأمر بعده الذي هو أشق لحصول الاستئناس، ثم لم يكن نهياً عن شيء سبق تحريمه،ولكن لما كانت لفظة المفاعلة تقتضي الاشتراك غالباً ، فصار المعنى: ليقع منك رعي لنا ومنا رعي لك، وهذا فيه ما لا يخفى مع من يعظم نهوا عن هذه اللفظة لهذه

---

(1) –كلمة كان اليهود يتسابّون بها، ومعناها(أسمع لا سمعت).

(2)– رواه البيهقي في دلائل النبوة، ج15/1، من رواية محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والسدي هذا الصغير متروك، وكذا شيخه.

(3)– انظر الرازي، التفسير الكبير: ص 260

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلة، وأمروا بأن يقولوا: انظرنا، إذ هو فعل من النبي صلى الله عليه وسلم، لا مشاركة لهم فيه معه([1]).

أقول هنا رداً على قول الإمام الرازي بترادف الكلمتين(راعنا، وانظرنا)، أنه لا يوجد ترادف بين مفردات كتاب الله تعالى، والكلمات التي ظنها بعض الناس مترادفة عندما نُنعم النظر فيهانجد أنّ لكلٍ معناها الدقيق.

ثم إنّ الرد على الترادف الذي قال فيه الإمام الرازي في الآية السابقة، هو كيف ينهانا الحق تبارك وتعالى عن قول (راعنا) ويأمرنا (انظرنا) فلو كان هناك ترادف بينهما لما كان الخطاب بهذه الصورة([2]).

وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" (البقرة: 153).

"استعينوا بالصبر والصلاة"وإنما خصهما بذلك لما فيهما من المعونة على العبادات، أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمل مشاق العبادات، وتجنب المحظورات.

إنّ الله مَعَ الصابرين" يعني في النصر كقوله "فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السميع العليم"(البقرة: 137) فكأنه تعالى ضمن لهم إذا هم استعانوا على طاعاته بالصبر والصلاة أن يزيدهم توفيقاًوتسديداً وألطافاً ([3]).

فأمر بالصبر والصلاة، لأنه ليس شيء من الطاعة الظاهرة أشد من الصلاة على البدن، لأنه يجتمع فيها أنواع الطاعات: الخضوع والإقبال والسكون والتسبيح

---

(1)- انظر الأندلسي، البحر المحيط: ص 441

(2)-انظر الماوردي،علي بن محمد بن حبيب النكت والعيون، ت:1058م، تحقيق السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت -2007، ص 80 (والترادف من أصل (ردف) فالراء والدال والفاء أصل واحد مطرد، يدل على إتباع الشيء فالترادف: "هو التتابع" (مقاييس اللغة:427)واصطلاحاً : "هو ما تعدد لفظه واتحد معناه"(البيان في إعجاز القرآن:164) قال في الترادف (الزركشي، الرماني، علي الجارم، وإبراهيم أنيس)، أما من نفى الترادف(الجاحظ، أبن قتيبة، الراغب، بنت الشاطئ، وفضل عباس).

(3)- انظر الرازي، التفسير الكبير : 441/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقراءة؛ فإذا تيسر عليه الصلاة تيسر عليه ما سوى ذلك. وليس شيء من الطاعات الباطنة أشد من الصبر على البدن، فأمر الله بالصبر والصلاة لأنهما حسن. ثم قال:" إِنَّ الله مَعَ الصابرين" فالله تعالى مع كل أحد ولكن خصَّ الصابرين لكي يعلموا أن الله سبحانه وتعالى يفرج عنهم.

فاندرج المصلون تحت الصابرين اندراج الفرع تحت الأصل. وأما قوله هناك: " وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين"، فأعاد الضمير عليها على ظاهر الكلام، لأنها أشرف وأشق نتائج الصبر ([1]).

وذكر هنا أن الصلاة تهون على الخاشعين وذلك لأنهم ينتظرون ثوابها يوم القيامة فتهون عليهم.

إنَّ الله مع الصابرين" تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة لما أنه المحتاج إلى التعليل وأما الصلاة فحيث كانت عند المؤمنين اجلّ المطالب ودخول مع على الصابرين لما أنهم المباشرون للصبر حقيقة فهم متبوعون من تلك الحيثية([2]).

3- ومثالاً تطبيقياً آخر قوله تعالى "يا أيها الذين آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"البقرة(172)

لما أخبر سبحانه وتعالى أن الدعاء لا يزيدهم إلا نفوراً، قي الخطاب من الناس إلى أعلى منهم رتبة فقال آمراً لهم أمر إباحة أيضاً وهو إيجاب في تناول ما يقيم البنية ويحفظها: " يا أيها الذين آمنوا كلوا " حيث تقدم الخطاب في أمر الدين في رتبتين([3]):

أولاهما" يا أيها الناس اعبدوا ربكم" (البقرة:21)

وثانيتهما " يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا "(البقرة: 104) فأمر الناس فيه بالعبادة وأمر الذين آمنوا بحسن الرعاية مع النبي صلى الله عليه وسلم، كذلك هنا أمر الناس بالأكل مما في الأرض ونهى عن اتباع خطوات الشيطان، وأشعر الخطاب بأنهم ممن يتوجه الشيطان نحوهم للأمر بالسوء والفحشاء والقول بالهوى، وأمر الذين آمنوا

---

(1)- انظر الأندلسي، البحر المحيط: ص448

(2)- انظر الزمخشري، الكشاف: 132/1

(3)- انظر البقاعي، برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية- بيروت 1995م، ص245-246 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالأكل " من طيبات " فأعرض في خطابهم عن ذكر الأرض لتناولهم الرزق من السماء قال سبحانه وتعالى: " وفي السماء رزقكم" (الذاريات: 22)

فأطعم الأرضيين وهم الناس مما في الأرض وأطعم السماويين وهم الذين آمنوا من رزق السماء كذلك، وخص هذا الخطاب بلفظ الحلال لما كان آخذاً رزقه من السماء متناولاً طيبة لبراءته من حال مما في الأرض مما شأنه ضر في ظاهر أو أذى في باطن، فالمسترزق من السماء يصير المحرم له حلالاً لأخذه منه عند الضرورة تقوتاً لا تشهّياً، ويصير الحلال له طيباً لاقتناعه منه بالكفاف دون التشهي"يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات"(المائدة:4)([1]).

والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبولَ الدعاء والعبادة،كما جاء في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمد:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: "يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" (المؤمنون: 51) وقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" ثم ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك"([2]).

ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، وسواء أكانت منخنقة أم موقوذة أم مُتَردِّية أم نطيحة أم عدا عليها السبع([3]).

ثم إن فائدة تخصيصهم بعد التعميم، هو تشريفهم بالخطاب وتمهيد لطلب الشكر، و" كُلُواْ " لعموم جميع وجوه الانتفاع دلالة وعبارة و"اشكروا للّهِ " على ما أنعم به عليكم

---

(1)– انظر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ص246

(2)– ابن حنبل، احمد، المسند (328/2)،تحقيق شعيب الأرناووط،مؤسسة الرسالة،2001، مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم برقم (1015)و الترمذي، سنن الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق، برقم (2989)

(3) – انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (ت:774)هـ، ط1، 481.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والالتفات لتربية المهابة "إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " بمنزلة التعليل لطلب الشكر كأنه قيل: واشكروا له لأنكم تخصونه بالعبادة([1]).

4- قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى" (البقرة: 178).

بين الله تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ " أي: تنحقن بذلك الدماء، وينقمع به الأشقياء، لأن من عَرَفَ أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رُئي القاتل مقتولا انذّعر بذلك غيره وانزّجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر، الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار، ما يدل على حكمة الحكيم الغفّار، ونكَّر "الحياة "لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم، لا يعرف حقيقته، إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيّلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى، يُحب من عباده، أن يُعمِلوا أفكارهم وعقولهم، في تدبّر ما في أحكامه من الحِكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجّه إليهم الخطاب، وناداهم ربُّ الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون.

وقوله: "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" وذلك أن من عَرَفَ ربه وعَرَفَ ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله تعالى، ويُعظّم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين([2]).

5- وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (البقرة: 183).

فرض الله الصيام لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مَصلحة للخلق في كل زمان. وفيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيّلة، التي اختصيتم بها.

---

(1) – انظر الألوسي، روح المعاني: ص98

(2)– السعدي، عبد الرحمن، كلام المنّان، تحقيق محمد النجار، مؤسسة السعيدية – الرياض 84/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال: "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

ومن الخصال التي اشتملت عليها التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقربا بذلك إلى الله، راجيا بتركها، ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه، مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

ومنها:أن الصيام يضيّق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام، يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي.

ومنها: أن الصائم في الغالب، تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى.

ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع، أوجب له ذلك، مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى([1]).

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

قال الإمام الرازي في "لعلكم تتقون":

لعلكم تتقون الله بصومكم وترككم للشهوات فإن الشيء كلما كانت الرغبة فيه أكثر كان الاتقاء عنه أشق والرغبة في المطعوم والمنكوح أشد من الرغبة في سائر الأشياء فإذا سهل عليكم اتقاء الله بترك المطعوم والمنكوح، كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أسهل وأخف: لعلكم تنتظمون بسبب هذه العبادة في زمرة المتقين؛ لأن الصوم شعارهم([2]).

6- قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة:209)

---

(1)- السعدي، كلام المنان: 86/1

(2)- الرازي، التفسير الكبير: 84/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا في "السِّلْمِ كَافَّةً" أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئا، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه، تركه، بل الواجب أن يكون الهوى، تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه، من أفعال الخير، وما يعجز عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه بنيته.

ولما كان الدخول في السلم كافّة، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال تعالى: "وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ" أي: في العمل بمعاصي الله "إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" والعدو المبين، لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، وما به الضرر عليكم.

وختم الله تعالى الآية بقوله: "فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عزيزٌ حكيمٌ".

لما فيه من الوعيد الشديد، والتخويف، ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر الحكيم، إذا عصاه العاصي، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته فإن من حكمته، تعذيب العصاة والجناة([1]).

وقال الزمخشري:"عزيز" غالب لا يعجزه الانتقام منكم "حَكِيمٌ" لا ينتقم إلا بحق([2]).

وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (البقرة:254)

جاءت الآيات تحث على الأنفاق في سبيل الله تعالى من قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي ليس فيه لا مودة ولا صداقة ولا أخلاء ولا شفاعة.

ثم إن السبب في عدم الخُلّة والشفاعة يوم القيامة أمور أحدها: أن كل أحد يكون مشغولاً بنفسه، على ما قال تعالى: "لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ" (عبس:37) والثاني: أن الخوف الشديد غالب على كل أحد على ما قال: "يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سكارى وَمَا هُم بسكارى "(الحج:2)

والثالث: أنه إذا نزل العذاب بسبب الكفر والفسق صار مبغضاً لهذين الأمرين، وإذا صار مبغضاً لهما صار مبغضاً لمن كان موصوفاً بهما.

---

(1)- السعدي، كلام المنان:94/1

(2)- الزمخشري، الكشاف:183/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما قوله تعالى: "والكافرون هُمُ الظالمون" ليدل على أن ذلك النفي مختص بالكافرين وعلى هذا التقدير تصير الآية دالة على إثبات الشفاعة في حق الفسّاق.

التأويل الثاني: أن الكافرين إذا دخلوا النار عَجَزوا عن التخلص من ذلك العذاب، فالله تعالى لم يظلمهم بذلك العذاب، بل هم الذين ظلموا أنفسهم حيث اختاروا الكفر والفسق حتى صاروا مستحقين لهذا العذاب، ونظيره قوله تعالى: "وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا "(الكهف: 49).

والتأويل الثالث: أن الكافرين هم الظالمون حيث تركوا تقديم الخيرات ليوم فاقتهم وحاجتهم، وأنتم أيها الحاضرون لا تقتدوا بهم في هذا الاختيار الرديء، ولكن قدموا لأنفسكم ما تجعلونه يوم القيامة فدية لأنفسكم من عذاب الله([1]).

وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ " (البقرة:264)

قوله تعالى: "لاَ تُبْطِلُواْ صدقاتكم بالمن والأذى" يحتمل أمرين أحدهما: لا تأتوا به باطلاً ، وذلك أن ينوي بالصدقة الرياء والسمعة، فتكون هذه الصدقة حين وجدت حصلت باطلة.

الوجه الثاني: أن يكون المراد بالإبطال أن يؤتي بها على وجه يوجب الثواب، ثم بعد ذلك إذا اتبعت بالمن والأذى صار عقاب المن والأذى مزيلاً لثواب تلك الصدقة.

ثم قال: "لاَ يَهْدِي القوم الكافرين " ومعناها على قول المعتزلة: إنه تعالى يضلهم عن الثواب وطريق الجنة بسوء اختيارهم([2]).

ضرب الله تعالى لنا في هذه الآيات مثالين للمنفق:

الأول: الذي يُنفق ماله بقصد الرياء والسمعة، وهذا خسر ماله وخسر الثواب.

والثاني: الذي يُنفق ماله ابتغاء مرضاة الله تعالى، فهذا ربح المال وربح الأجر والثواب عند الله تعالى، ووطن نفسه على فعل الطاعات والخيرات باختيارها دون شح أو بخل، فكان التثبيت من أنفسهم.

---

(1)- الرازي، التفسير الكبير:439/3

(2)- المرجع نفسه:491/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الطاهر بن عاشور ومعنى تثبيتاً من أنفسهم: يجوز أن يكون تثبيتا أي تصديقاً لوعد الله وإخلاصاً في الدين ليخالف حال المنافقين، فإن امتثال الأحكام الشاقة لا يكون إلا عن تصديق للآمر بها([1]).

وفي تفسير التثبيت معنى أخلاقي جليل أشار إليه الفخر، وهو ما تقرر في الحكمة الخلقية أن تكرر الأفعال هو الذي يوجب حصول الملكة الفاضلة في النفس، بحيث تنساق عقب حصولها إلى الكمالات باختيارها، وبلا كلفة ولا ضجر. فالإيمان يأمر بالصدقة وأفعال البر والذي يأتي تلك المأمورات يثبّت نفسه بأخلاق الإيمان([2]).

9- قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ "(البقرة:267).

إفضاء إلى المقصود وهو الأمر بالصدقات بعد أن قدم بين يديه مواعظ وترغيب وتحذير. وهي طريقة بلاغية في الخطابة والخطاب. فربما قدموا المطلوب ثم جاءوا بما يكسبه قبولا عند السامعين، وربما قدموا ما يكسب القبول قبل المقصود كما هنا. وهذا من ارتكاب خلاف مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل' ونكتة ذلك أنه قد شاع بين الناس الترغيب في الصدقة، وتكرر ذلك نزوله في القرآن،حتى أصبح غرضاً دينياً مشهوراً .

وجملة "مِنْهُ تُنْفِقُونَ " حال، والجار والمجرور معمولان للحال قدما عليه للدلالة على الاختصاص، أي لا تقصدوا الخبيث في حال إلا تنفقوا إلا منه، لأن محل النهي أن يُخرج الرجل صدقته من خصوص رديء ماله([3]).

وطلب الله تعالى منهم أن يقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة وختم بقوله:"واعلموا أن الله غني حميد" فهو غني عنكموغنيٌ عن صدقاتكم،وإنما نفع

---

(1)- ابن عاشور، التحرير والتنوير:522/2

(2)- الرازي، التفسير الكبير: 495/3

(3)- ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/525-526

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح([1]).

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "(البقرة: 278)

ناداهم باسم الإيمان تحريضاً لهم على قبول الأمر بترك ما بقي من الربا، وبدأ أولاً بالأمر بتقوى الله، إذ هي أصل كل شيء، ثم أمر ثانياً بترك ما بقي من الربا.

وفيه حملة شديدة على جريمة الربا التي تهدد كيان المجتمع وتقوّض بنيانه وحملت على المرابين بإعلان الحرب من الله تعالى ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه، وعرض للمنهج البديل فالإسلام لا ينهى عن أمر بدون أن يقدم البديل الحلال. وقد جاءت آيات الربا بين آيات الإنفاق لتؤكد معنى وجود المنهج البديل للمال والرزق الحلال.

" إن كنتم مؤمنين"تقدّم أنهم مؤمنون بخطاب الله تعالى لهم:"يا أيها الذين آمنوا" وجمع بينهما بأنه شرط مجازي على جهة المبالغة أو بأن المعنى: إن صح إيمانكم، يعني أن دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ما أُمرتم به من ذلك، قاله الزمخشري، وفيه دسيسة اعتزال، لأنه إذا توقفت صحة الإيمان على ترك هذه المعصية فلا يجامعها الصحة مع فعلها وإذا لم يصح إيمانه لم يكن مؤمناً ، مدعى المعتزلة([2]).

قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا

(1)– السعدي، كلام المنان: 115/1

(2)– الأندلسي، البحر المحيط: 88/3

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (البقرة:282)

فُصلت آية المداينة، عن الحديث عن الربا،بآية تحذيرية وهي التذكير بالرجوع إلى الله تعالى: "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "(البقرة:281)، وهذا الترتيب يعد من أبلغ ألوان التحذير، لأن النفوس مازالت في خوف وترقب، واستشعار الغضب الإلهي بسبب الربا.

وحين تأتي آية المداينة في هذا الجو المفعم بالخشية، والرعب، والحذر، والترقب، فإن النفوس تضفي على المداينة، وأنواعها، ألواناً من التحذيرات التي مازالت عالقة بها من الربا، الذي هو حرب لله تعالى ورسوله، ومن مشاهد القيامة التي تجعل الولدان شيبا، ولا شك أن آية المداينة حين صاحبت آيات الربا قد أصابها من وعيدها، وتهديد أصحابها والمبالغة في إنذارهم الكثير([1]).

ولم لا والديون بوابة الربا، ومفتاح من مفاتيحه ؟!

ولم لا وأكثر الخصام بين الناس يكون بسبب تلك المعاملات؟!

ولم لا وآية المداينة قد امتلأت طريق الدين بالأشواك التي تحتاج إلى حذر شديد عند التعامل بها ؟

ولقد تبين أن آية الدين تقع في ختام القسم التشريعي، بعدما تكون النفوس قد هُذّبت وترسّخ فيها أصول التوحيد وتمرّست على أنواع العبادات _ من صلاة وصيام وحج وجهاد _وكأن الدَّين أعلى قدراً من حيث حاجته إلى نفوس عالية، وهمم سامقة، وقلوب صافية، حتى تمتثل لما فيه من ضوابط وقوانين.

"وفرق بين أن تلقي خطاباً لنفس خالية من البواعث والمحرضات، وبين أن تلقي الخطاب نفسه إلى نفوس تشبّعت بالإيمان، واستحضرت الآخرة واستعدت لها بأنواع العبادات – لا شك أن هذا الأمر سيكون محل استجابة وموضع قبول– ومن أجل ذلك وضعت آية الدين بعد كل هذه الرحلة الطويلة من حديث عن العقيدة وموقف الناس منها، ومن حديث عن التشريع وأعمدته الرئيسة، فالنفوس صارت مهيئةً ، والإيمان في

(1)– انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير:585/2، انظر البقاعي، نظم الدرر:455/1.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أعلى درجاته ، وهذا يصور أهمية استثارة النفوس لتلقي الأوامر والنواهي عامةً ، ومنها المتعلقة بالأموال.

ثم يأتي الختام الزاخر بما أعده للممتثلين الطائعين الطامعين في عطاء الله تعالى وعفوه، وكأن ما تقدم من توطئة لا يكفي، فلابد من إحاطة هذه الأوامر والنواهي من جانبيها بسياج منيع، حتى لا يترك للنفوس مخرج، أو محيص عنها، فيذكر بعد آية الدَّين آيات الختام، وهي آيات باعثة ومحرضة أيضاً على الامتثال والطاعة، لما تحمله من جزاء الطائعين وثواب الممتثلين، بالإضافة إلى ترهيب المعرضين، والتنويه بما ينتظرهم من عذاب أليم.

والذي يتبن أن هذا الطول لون من ألوان التحذير ؛ لأن طريق الديون طريق طويل، مليء بالعقبات، كما أن آثار الديون لا تزول سريعاً ، بل تبقى عالقة بالنفوس، مثل الألم الذي لا يزول حتى بعد العلاج، وكأن طول الآية يوحي بأفضلية عدم التداين، لأنه بابُ خطرٍ ، فالصبر أولى منه لمن يريد الاقتراض "([1]).

وهكذا تحاول الآية أن تصرف الناس عن دروب التداين إلى طريق آخر، فطالت، ليشق عليهم جمعها وقراءتها.

5.2 خطاب الله تعالى إلى أدم عليه السلام.

قال تعالى: " قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ "(البقرة:33)

" إن أبرز إيحاءات قصة آدم – كما وردت في هذا الموضع – هو القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان ولدوره في الأرض، ولمكانه في نظام الوجود، وللقيم التي يوزن بها. ثم لحقيقة ارتباطه بعهد الله، وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافته على أساسه.

وتتبدى تلك القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان في الإعلان العلوي الجليل في الملأ الأعلى الكريم، أنه مخلوق ليكون خليفة في الأرض؛ كما تتبدى

---

(1)– القماش، عبد الرحمن بن محمد، الحاوي في تفسير القرآن الكريم، الطبعة الأولى، ص2210.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في أمر الملائكة بالسجود له،وفي طرد إبليس الذي استكبر و أبى، وفي رعاية الله له أولاً وأخيراً ..

ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء.

وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أن الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق كل شيء فيها – فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعاً . ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي، لا يجوز أن يعتدى على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة، ولا أن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب مادي، فهذه الماديات كلها مخلوقة – أو مصنوعة – من أجله، من أجل تحقيق إنسانيته، من أجل تقرير وجوده الإنساني، فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية، أو نقص مقوم من مقومات كرامته.

والاعتبار الثاني هو أن دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول. فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها؛ وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها. وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج،هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الإنسان وتصغر، بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبر"([1]).

" إن النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته في الأرض، عاملاً مهما في نظام الكون، ملحوظا في هذا النظام

وفي التصور الإسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الإنسان فهي مناط العهد مع الله، وهي مناط التكليف والجزاء، إنه يملك الارتفاع بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم إرادته، وعدم الخضوع لشهواته، والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه. بينما يملك أن يشقي نفسه ويهبط من عليائه، بتغليب الشهوة على الإرادة، والغواية على الهداية، ونسيان العهد الذي يرفعه إلى مولاه. وفي هذا مظهر من مظاهر التكريم لا شك

---

(1)– قطب، في ظلال القرآن: ص32–33

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيه، يضاف إلى عناصر التكريم الأخرى.كما أن فيه تذكيراً دائماً بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة، والرفعة والهبوط، ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق!

وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الإنسان والشيطان مذكر دائم بطبيعة المعركة. إنها بين عهد الله وغواية الشيطان بين الإيمان والكفر. بين الحق والباطل. بين الهدى والضلال.. والإنسان هو نفسه ميدان المعركة. وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها. وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة؛ وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان؛ وأنه هو صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان"([1]).

لما ذكر الله تعالى مراجعة الملائكة في خلق هذا الخليفة فذكر لهم وجه حكمته بما أعلى هذا الخليفة من تعليمه إياه حقائق جميع الذوات المشهودة لهم على إحاطتهم بملكوت الله و ملكه شهوداً فأراهم إحاطة علم آدم بما شهدوا صورة ولم يشهدوا حقيقة مدلول تسميتها، ثم بين لهم حكمته تعالى فيما يتناهى إليه كمال خلقه إلى خاتمة أمره فيما انتهى إليه أمر محمد صلى الله عليه وسلم مما هو مبهم في قوله تعالى "لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " (النساء: 113) فأبدى الله عز وجل لهم بذلك وجه خلافة علمية وعملية في التسمية إعلاء له عندهم، وقد جعلهم الله عز وجل مذعنين مطيعين فانقادوا للوقت بفضل آدم على جميع الخلق وبدا لهم علم أن الله يعلي من يشاء بما يشاء من خلافة أمره وخلقه([2]).

قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ " نادى سبحانه آدم باسمه العلم كما هو عادته جل شأنه مع أنبيائه ما عدا نبينا صلى الله عليه وسلم حيث ناداه "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ "(الأنفال:65) و "يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك"(المائدة:67) لعلو مقامه ورفعة شأنه إذ هو الخليفة الأعظم.

وأنه حقيق أن يعلم غيره أو لتكون له عليه السلام منة التعليم كاملة حيث أقيم مقام المفيد وأقيموا مقام المستفيدين منه، أو لئلا تستولي عليه الهيبة فإن إنباء العالم ليس كإنباء غيره. والمراد بالإنباء هنا الإعلام لا مجرد الإخبار([3]).

---

(1)– قطب، في ظلال القرآن، ص34

(2) – انظر البقاعي، نظم الدرر: ص56

(3) – انظر الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: ص267

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يا: اُستعملت في نداء القريب على خلاف الأصل إشارة إلى علو منزلة المنادى وارتفاع شأنه.

وقال الطبري: جاء في الأثر:682، وحدثني المثنى بن إبراهيم، قال: أخبرنا الحجاج ألأنماطي، قال: حدثنا مهدي بن ميمون، قال: سمعت الحسن بن دينار، قال للحسن – ونحن جُلوس عنده في منزله– يا أبا سعيد: أرأيتَ قول الله للملائكة:"وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"، ما الذي كتمت الملائكة؟ فقال الحسن: إن الله لمّا خلق آدم رأت الملائكة خلقًا عجيبًا، فكأنهم دَخلهم من ذلك شيء، فأقبل بعضهم إلى بعض، وأسرّوا ذلك بينهم، فقالوا: وما يُهمكم من هذا المخلوق! إنّ الله لن يخلق خَلقًا إلا كنا أكرمَ عليه منه([1]).

أقول رداً على هذا القول: قالوا ذلك لصراحتهم لأنهم لا يعرفوا المراوغة كالبشر" لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ "(التحريم:6)

أما الأمام البيضاوي فقد قال:" اعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة، بل العمدة فيها، وأن التعليم يصح إطلاقه عليه تعالى وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه؛ لاختصاصه بمن يحترف به، وأن آدم عليه السلام أفضل من هؤلاء الملائكة؛ لأنه أعلم منهم، والأعلم أفضل لقوله تعالى: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (الزمر: 9)، وأن الله يعلم الأشياء قبل حدوثها"([2]).

---

(1) – الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ط1- 2000، ص499، الأثر 682- في الدر المنثور 1: 50. و"الحجاج ألأنماطي" : هو الحجاج ابن المنهال، وهو ثقة من شيوخ البخاري والدارمي وغيرهما . و"مهدي بن ميمون" : ثقة معروف، روى عن الحسن البصري، وابن سيرين وغيرهما .و هو في هذا الإسناد يصرح بأنه سمع جواب الحسن البصري، حين سأله الحسن بن دينار. وقد نبهت على هذا، خشية أن يظن أنه من رواية مهدي عن الحسن بن دينار. والحسن بن دينار: كذاب لا يوثق به. وله ترجمة حافلة بالمنكرات والموضوعات – في كتاب المجروحين لابن حبان، رقم : 208، والميزان، ولسان الميزان، والتهذيب، وترجم له البخاري في الكبير 290/2/1 – 291، والصغير: 185، وابن أبي حاتم 11/2/1 – 12، وابن سعد37/2/7

(2)– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ص290، انظر الإدريسي، محمد بن مهدي، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد،، تحقيق أحمد قرشي، الناشر :حسن عباس، القاهرة–1419ه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

6.2 حوار إبراهيم عليه السلام مع النمرود

قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ" (البقرة:258) مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى: لما أخبر أنه ولي الذين آمنوا، وأخبر: أن الكفار أولياؤهم الطاغوت، ذكر هذه القصة التي جرت بين إبراهيم والذي حاجه، وانه ناظر ذلك الكافر فغلبه وقطعه، إذ كان الله وليه، وانقطع ذلك الكافر وبهت إذ كان وليه هو الطاغوت.

جاءت هذه الآية شاهداَ على ذلك، كأنه قيل: انظروا إلى إبراهيم كيف كان يهتدي لولاية الله له إلى الحجج القيمة والخروج من الشبهات التي تعرض عليه، فيظل على نور من ربه، إلى الذي حاجه كيف كان لولاية الطاغوت له يعمي عن نور الحجة، وينتقل من ظلمات الشبه والشكوك إلى أخرى"([1]).

يبدأ هذا المشهد بداية فيها لفت للعقول، وتشويق للأسماع، وحث على النظر في هذا الأمر العجيب المتمثل في محاجة نمرود في الله تعالى وكفره به"الم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه " (البقرة آيه258).

ولم يعطف الكلام على سابقه، لأنه دليل عليه وبيان له بشاهد عملي جرت أحداثه على أرض الواقع.

قال أبو السعود: إن همزة الاستفهام جاءت لإنكار النفي، وتقرير المنفي، وقد تحققت الرؤية وتقررت بناء على أن أمره من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب([2]).

وعند الزمخشري الاستفهام تعجب من محاجة هذا الطاغية في الله عز وجل وكفره به وتجبره بقوته([3]).

ص34،، ابن كثير ص222-223

(1)- رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، (المنار)، ت:1935م، الهيئة العامة للكتاب 1990، ط2، ج3 ص3.

(2) – انظر أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 151/1.

(3) – انظر الزمخشري، الكشاف:1 /387

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد شاع تركيب "ألم تر إلى..." في القران الكريم، وهذا التركيب إذا جاء فعل الرؤية فيه متعدياَ إلى ما ليس من شأن السامع أن يكون رآه ،كان كلاماً مقصوداً منه التحريض على عدم علم ما عدى إليه فعل الرؤية، فتكون همزة الاستفهام غير مستعملة في الاستفهام الحقيقي، بل في معنى من معانية التي يخرج إليها، ويكون الخطاب به غالباً موجهاً إلى غير معين فيشمل كل من يصح له الخطاب([1]).

وقد يكون هذا التركيب جرى مجرى المثل، بأنه شبه حال من لم ير الشيء، بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه، ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأي،قاصداً المبالغة في شهرته و عراقته في التعجب([2]).أو أنها رؤيا علمية بناء ً على إخبار الله تعالى لهم.

أقول إن تعريف الطاغية بالاسم الموصول دون التصريح باسمه لما في إخفاء اسمه من تحقيره وا ٍهماله، ولأن اسمه لا يهم المخاطبين في شيء لحصول الإفادة والعبرة دون الحاجة إلى معرفته، وللتمكن من وصفه بجمله الصلة، لكشف جريمته التي التصقت به،وأصبح معروفاً ومشهوراً بها بين الناس على مر العصور.

وبعد هذه البداية المشوقة لما بعدها، تذكر الآية ما دار في هذه المحاجة العجيبة، بداية القول من إبراهيم عليه السلام " إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت" وهذا دليل على أن إبراهيم هو من بدأ بالدعوة إلى الله تعالى([3]).وقيل أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك إجابة على سؤال النمرود له: من ربك الذي تدعو إليه؟ وبهذا يكون النمرود هو البادئ بالمحاجة([4]).

أقول:قُدّم ذكر النمرود حفظاً لمكانته العالية بين قومه ولم يصرح به تحقيراً له، وهذا من بديع خطاب القرآن للآخر فهو نوع أدب في حفظ المقامات جرياً على ما يُخاطب عليه القوم.وأن علو المنزلة ليست شرطاً في الهداية ومعرفة الحق.

---

(1)- انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير:2 /476

(2)- انظر الألوسي، روح المعاني: 1/2/ 160

(3)- انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير:3 /33

(4) - انظر الألوسي، روح المعاني: 16/3/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و جاء لفظ الرب لما فيه من الإشعار بتربيته والعناية به وتسديده، وما يحققه من ترابط للنظم بمراعاة التناسب بين "حاج إبراهيم في ربه" و "قال إبراهيم ربي" والإضافة فيه للتشريف، وتعريف الخبر (الذي) لإفادة الاختصاص فهو الذي يحُي ويُ ميت دون غيره([1]).

وقدمت الحياة على الموت على خلاف ما في كثير من الآيات، لأن دليل إبراهيم عليه السلام في دعوته يجب أن يكون في غاية الوضوح، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر واطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم أن قدمت الحياة في الذكر([2]).

أيضاً هناك أمراً آخر في تقديم الحياة على الموت، هو أن بخلق الحياة إدماج([3]) لإثبات البعث، لأن الذي حاج إبراهيم كان من عبدة الأصنام، فينكر البعث وذلك موضع العبرة من سياق الآية على مسامع أهل الشرك([4]).

وفي إجابة النمرود حماقة ما بعدها حماقة([5]) عندما قال:" أنا أُحي وأُميت"، فقد أراد أن يكون سبباً للإحياء والإماتة، والكلام في الإنشاء والتكوين ([6]) إضافة إلى أنه أحيا الحي ولم يحي الميت([7])

وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي في حكاية كلام الطاغية لتقوية الحكم وتأكيده لا للتخصيص، إذ لو كان للتخصيص لكان الكلام:"أنا الذي أُحي وأُميت".

---

(1)- انظر رضا، المنار: 3 /39

(2)- انظر الرازي، التفسير الكبير: 2 /318

(3) – الإدماج كما عرفه الخطيب البغدادي: هو أن (يضمن كلام سيق لمعنى معنىً آخر)، البغدادي، الخطيب، تلخيص المفتاح، ت:739هـ، شرح ألبرقوقي، دار الفكر، ص383

(4) – انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير:3 / 33

(5) – الخفاجي، شهاب الدين، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ت: 1069هـ، دار صادر– بيروت، ج2، ص337

(6)- انظر رضا، المنار:3 /39

(7)- انظر السمرقندي، نصر بن محمد، بحر العلوم، تحقيق:محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت– لبنان، ص213 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيرى الإمام الجرجاني: هذا الأسلوب وما فيه من تشويق للمخاطب، بسبب تقديم المسند إليه على خبره، وتنبيهه على أن حديثاً سيدور بشأنه، ليلتفت إليه، فيدخل إلى قلبه دخول المأنوس به، وهذا بمثابة التكرير في تأكيد الكلام([1]).

لما سمع إبراهيم عليه السلام محاجة النمرود، علم أنه مكابر يجادل في الباطل في حقيقة جلية، لا تكاد تخفى على أحد، فلم يتصدى لإبطالها، بل جاء بمثال لا يجد فيه الطاغية مجالاً للتمويه والتلبيس([2]).

يمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ "، دخلت الفاء على "إن" بتعلق هذا الكلام بما قبله، بمعنى: إذا ادعيت الإحياء والإماتة ولم تفهم، فالحجة أن الله يأت بالشمس من المشرق فات بها من المغرب، وتأكيد الكلام لأن المقام يقتضي التأكيد.

ومن اللطائف أيضاً في هذه القصة، التعبير باسم الجلالة دون لفظ "ربي" المستعمل في الدليل الأول، لما فيه من بعث المهابة والخشية، والترقي في التعبير بذكر الله تعالى بالاسم المختص به،الذي لا يُشرك معه أحد فيه.

ثم التعبير بالمضارع "يأتي" للدلالة على التجدد والاستمرار، فالإتيان بالشمس من المشرق، أمر مستمر ومتجدد كل صباح، ولكن الإتيان بها من المغرب، أمر غير مألوف، ففيه تحدي الطاغية وتعجيزه،وا إقامة الحجة عليه، لأنه لن يستطيع أن يفعل ذلك مهما أُوتي من قوة.

وختاماً فإن الآية الكريمةقد بيّنت نهايةالمحاجّة، بإلجام الطاغيةوا إقامة الحجة الدامغة عليهو ختمت الآية بقوله تعالى"والله لا يهدي القوم الظالمين" وهذا تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

والتعبير في الفاصلة بالظالمين بدلاً من الكافرين، كما هو متبادر إلى الذهن من قوله" فبهت الذي كفر" لإفادة العموم والشمول في عدم هداية من لا يستحق الهداية،

---

(1) – انظر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص :67، انظر الرازي، محمد عمر، نهاية الإيجاز في دراسة الأعجاز، تحقيق: بكري أمين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1– 1985م.:ص123.

(2) – انظر أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، : 1 /252

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والظلم أعم من الكفر وإنما انتفى هدى الله للقوم الظالمين، لأن الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلى التأمل في الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع والنجاة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

نماذج بلاغية وفنية وأسرار التشابه والتنوع في النظم القرآني

1.3 التقديم والتأخير

وقوعاً على الفائدة الأصيلة، رأيت أن أتخير أمثلة تطبيقية ونماذج فنية على وجوه الإعجاز البياني في الخطاب القرآني من خلال سورة البقرة،أبين فيها طرفاً من الاهتمام والعناية بهذا الجانب المهم من جوانب الإعجاز.

فالتقديم والتأخير من مظاهر النظّم بل هو لُبّه،قد عُرّف النظم بأنه: "ترتيب الألفاظ في النطق تبعاً لترتيب المعاني في النفس"([1]) ومن هنا فقد يكون الكلام واحداً في مادته وألفاظه، لكن ترتيبها هو الذي يختلف إذا اختلف المعنى المراد في نفس المتكلم.

ولأهمية هذا الباب، يقول شيخ البلاغة عبد القاهر رحمه الله تعالى: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية،لا يزال يفترّ – أي يكشف– لك عن بديعه،ويُفضي بك إلى لطيفه.."([2]). ولما كان التقديم والتأخير بهذه الأهمية، وجدنا أبا السعود رحمه الله يعنى به عناية خاصة، بحيث لا يكاد القارئ يتصفح ورقتين متتاليتين تخلوان من لطيفة في التقديم والتأخير، تهتز لها النفوس طرباً.

فنجده عند تفسيره([3]) لقوله تعالى: "ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ "(البقرة: ٢) يعلق على سبب تأخير ذكر الجار والمجرور "فيه" على أن حقهما التقدم على متعلقهما، خلافاً لذلك في قوله سبحانه: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " (البقرة: ٢٣)فيقول مبيناً سبب اختلاف النّظم في الآيتين: "إلا أنه خولف في الأسلوب – أي في الآية الثانية – حيث فرض كونهم في الريب لا كون الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه، مع نوع إشعار بأن ذلك من جهتهم لا من جهته العلية، ولم يقصد هنا –

---

(1)– عباس، البلاغة فنونها وأفنانها 207/1.

(2)– الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص83.

(3)–أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، 37/1:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي في الآية الأولى – ذلك الإشعار، كما لم يقصد الإشعار بثبوت الريب، لكمال وضوح دلائل الإعجاز وإنما ليقتضي تقدير الظرف كما في قوله: قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ " (الصافات: 48)([1]).

قال الزمخشري: "فإن قلت: فهلا قدّم الظرف على الريب، كما قدّم على الغول في قوله تعالى" لا فيها غول" (الصافات:47) قلت: لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أن كتاباً آخر فيه الريب، كما قصد في قوله:" لا فيها غول" تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة"([2]).

وكذلك أسرار تقديم بعض مذكورات النص وتأخير أخرى، وأمثلة هذا وفيرة، منها قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ "(البقرة: ٢٦).

حيث كان تقديم ذكر الإضلال على الهداية، مع كون الأخيرة أشرف حالاً وأرقى رتبةً ، "وقدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ؛ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرا فظيعا يسوؤهم ويفتّ في أعضادهم"([3])، إذ إن المقام مقام الكلام عن الكافرين.

وعند تفسير قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (البقرة: ٢٩)، نجد أنه لا يخفى سر تقديم الأرض على السماء، ذلك بأن تأخير ذكر السماء على أنها أقوى دلالة على كمال القدرة الباهرة ؛ إلا أن الأرض قد نيط بها من المنافع ما لم ينط بالسماء بالنسبة إلى

---

(1)– انظر أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، : 101/1

(2) – الزمخشري، الكشاف: 34/1

(3)–أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 106/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بني البشر، وقد تعلقت بها مصالحهم بأظهر مما تعلقت بأختها، فكان من الأنسب و الأليق أن يقدم ذكر الأرض على السماء([1])

ومثله – أيضا – ما ذكره في تفسير قوله سبحانه: "أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ" (البقرة: ٧٧)وإنما قدم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم، ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغة في بيان علمه المحيط لجميع المعلومات، كأن علمه بما يسرونه، أقدم منه بما يعلنونه؛ مع كونهما في الحقيقة على السوية، فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها، بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى.."

يقول أبو السعود "ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن "، إذ ما من شيء يعلن إلا ويمر بحالين: الأول: الإضمار في النفس وانعقاد القلب عليه،وهذا يتعلق به الإسرار غالباً، والثاني: البروز إلى العلن، والأولى متقدمة زماناً على الثانية، فقدمت في النص.

وختاماً فإن الإحاطة بكل ما يتعلق بموضوع التقديم والتأخير –وإن كان في تفسير سورة البقرة فحسب إلا أن الأمثلة التطبيقية غزيرة، وفيما تقدم كفاية([2]).

2.3 الفصل والوصل

"احتل هذا الموضوع مكانة رفيعة بين المباحث البلاغية، وكان له شأن عند الضالعين من أهل اللغة، ولكونه دقيق المسلك، لطيف المأخذ؛ جعله بعضهم حداً للبلاغة وقصرها عليه، واعتبرها هي معرفة الفصل والوصل"([3]).

"فالفصل: هو ترك العطف بالواو بين الجمل بخلاف الوصل: فهو العطف بالواو بينها وهذا يترتب على التغاير والاشتراك"([4]).

ومثاله قوله تعالى "أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (البقرة:5)

---

(1) – انظر أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، : 153/1.

(2) – المرجع نفسه: 1/ 153

(3) – عباس، البلاغة فنونها وأفنانها : ص392

(4) – الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص156

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم جاءت الجملة مع العاطف ؟ وما الفرق بينه وبين "أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (الأعراف:179) قلت: قد أختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين في الثانية فإنهما متفقان، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى فهي من العطف بعزل"([1]).

هذا وقد ذكر السكاكي حينما تعرض لهذا الموضوع في كتابه "مفتاح العلوم" كلاماً يفصح عن أهمية هذا الفن من فنون البلاغة، إذ يقول: وإنها لمحك البلاغة، ومنتقد البصيرة، ومضمار النظار، ومتفاضل الأنظار، ومعيار قدر الفهم، ومسبار غور الخاطر، ومنجم صوابه وخطئه، ومعجم جلائه وصدائه، وهي التي إذا طبقت فيها المفصل شهدوا لك من البلاغة بالقدح المعلى، وأن لك في إبداع وشيها اليد الطولى، وهذا فصل له احتاج إلى تقرير وافٍ وتحرير شافٍ .."([2]).

والتنبيه إلى لطائف الفصل والوصل، ومعاقد البلاغة فيهما قد امتلأ به تفسير أبي السعود، وقد ورد منه في تفسيره سورة البقرة شيءٌ كثير. من ذلك، ما ذكره في تفسير قوله تعالى: "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" (البقرة: ٣ – ٤)، يتكلم عن العطف الذي يصل الجملتين في الآيتين الكريمتين، إذ إن الأصل أن العطف يقتضي التغاير، فهل الأمر كذلك في هذا النص ؟

يجيب أبو السعود مبينا السر في وجود حرف العطف بقوله: "ويجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجاً تحت المتقين، ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الذوات ؛ بل لاختلاف الصفات.. للإيذان بأن كل واحد من الإيمان بما أشير إليه من الأمور الغائبة، والإيمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله له شأن خطير، مستتبع لأحكام جمة، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل أحدهما تتمة للآخر"([3]). ثم إذا انتهى من تقرير هذا؛ استطرد إلى بيان اللطائف

---

(1)– الزمخشري، الكشاف: 45/1

(2)– السكاكي، مفتاح العلوم، ص357

(3)–أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 46/1 .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والفوائد في اقتران كل من الصفات في سياق واحد مع أخواتها، فقال: "وقد شفع الأول – وهو الإيمان بالغيب – بأداء الصلاة والصدقة اللتين هما من جملة الشرائع المندرجة تحت تلك الأمور المؤمن بها تكملة له، فإن كمال العلم بالعمل. وقرن الثاني – وهو الإيمان بالكتب – بالإيقان بالآخرة مع كونه منطوياً تحت الأول تنبيهاً على كمال صحته، وتعريضاً بما في اعتقاد أهل الكتابين من الخلل"([1]).

ومن ثم قد تفصل الجملتان إذا كان بينهما امتزاج معنوي، كأن ترفع الجملة الثانية ما قد يتوهم في الجملة الأولى من تجاوز أو سهو ونسيان، كما تجد ذلك في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ "(البقرة:2) فتعريف جزأي الجملة الأولى والمجيء باسم الإشارة للبعيد، مؤذن بوصف هذا الكتاب بأنه قد بلغ أسمى درجات الكمال، ولما كان ذلك قد يوهم أن ثمة مبالغة في هذا الوصف، نفى هذا الوهم، وأتبع ذلك بقوله"لا ريب فيه" أي في بلوغه تلك الغاية من الكمال، تأكيداً لما فهم من الجملة الأولى، وأتبعه كذلك بقوله"هدى للمتقين"تأكيداً ثانياً ، لأن معنى بلوغ القرآن للكمال إنما هو كماله في الهداية والإرشاد([2]).

3.3 التعريف والتنكير

أجمع البلاغيون على أن المعرفة هي ما دل على شيء بعينه، وأن النكرة هي ما دل على شيء لا بعينه،فوافق تعريفهم لكلا المصطلحين ما وضعا له لغةً : إذ التعريف في اللغة (ذكر شيء تستلزم معرفته معرفة شيء آخر)([3])، أو أن (يكون اللفظ واضح الدلالة على معنى فيفصل بلفظ أوضح دلالة على ذلك المعنى، كقولك: الغضنفر الأسد،

---

(1) – المرجع نفسه:46/1.

(2) – بدوي، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة 2005، ط1، ص137.

(3)– الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي– بيروت1985، ص85

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليس هذا تعريفاً حقيقياً يُراد به إفادة تصور غير حاصل إنما المراد تعيين ما وُضع له لفظ "الغضنفر" من بين سائر المعاني)([1]).

التعريف والتنكير من الظواهر السياقية التي تقتضيها أحوال المخاطبين، ويقصدها المتكلم تبعا لمعنى أراده في نفسه اقتضى أيّاً من التعريف أو التنكير، ولكل منهما أغراض بلاغية متعددة،وإن مجيء لفظ ما من ألفاظ القرآن معرفاً تارة،ومنكّراً تارة أخرى لم يكن قط مصادفة عبثية –تعالى الله وكلامه عن ذلك– إنما جئ به مرة على حالة، وأخرى على أخرى لنكتة ما متعلقة بالسياق الذي ورد فيه هذا اللفظ أو ذاك، ولا شك أن هذا النوع من المباحث البلاغية ملحوظ في القرآن الكريم، ومثاله ما جاء في قوله تعالى "أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "(البقرة:٥)، حيث طفق القاضي أبو السعود يكشف عن السر الذي لأجله ذُكّرت كلمة "هدى"في النص المذكور، فيقول: "وما فيه من الإبهام المفهوم من التنكير لكمال تفخيمه، كأنه قيل: على أيّ هدىً لا يبلغ كنهه، ولا يقادر قدره"([2]).

هذا مثال في أسرار التنكير، ولا نتعدى تفسير ذات الآية حتى نتعرف بمثال آخر نبين فيه ما في التعريف من فوائد ومعان بلاغية خاصة به، ففي فاصلة الآية جاء لفظ "المفلحون"معرفاً كما هو واضح، فما السر في ذلك ؟

"جاء تعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة، أو إشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم"([3]).

نعود إلى التنكير فإنه يأتي لتحقيق أغراض بلاغية جمة منها:

النوعية: ومنه قوله تعالى" وعلى أبصارهم غشاوة" (البقرة:7)، أي: نوع من الأغطية وهو(غطاء التعامي عن آيات الله تعالى)([4]).

---

(1) – الجرجاني، التعريفات: ص85

(2)–أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 48/1

(3) – المرجع نفسه :48/1

(4)– مطلوب، أحمد، أساليب بلاغية، وكالة المطبوعات بالكويت1980، ص156، انظر عطية، مختار، علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر– الإسكندرية–2004، ص97.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التعظيم: ومن ذلك قوله تعالى: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ "(البقرة:179)
أي:حياة عظيمة، لا يحدها تعريف أو وصف لسلامتها من القلق
والاضطراب واتسامها بسمات الأمن والحب والإخاء([1]).

التفخيم: وفي قوله سبحانه: "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ " (البقرة:17)

يتكلم عن اشتقاق كلمة النار، ومعنى استيقادها ثم يبين سبب تنكيرها، ويقرر أن التنكير للتفخيم([2])، وهذا بالطبع معنى يناسب السياق، إذ المقصود بالنار التي استوقدها المنافقون ما أظهروه من إيمان على قول، أو ما أضاء لهم في بعض اللحظات من إشراقات إيمانية على قول آخر([3])، وعلى أيهما فإن المقصود من تفخيم النار بتنكير لفظها، هو الإشارة إلى أنها نار ضخمة، عظيمة القدر، كانت كفيلة بأن تضئ لهم طريقهم، وتنقذهم من ظلمات الضلال ؛ إلا أنها ما لبثت أن انطفأت، فانكفئوا خاسرين.

التحقير :ومن ذلك قوله سبحانه: "وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ " (البقرة: ٩٦) أخذ أبو السعود في الكشف عن السر المترتب على تنكير لفظ "حياة" الوارد في الآية الكريمة، فقال: "والتنكير في قوله تعالى: (على حياة) للإيذان بأن مرادهم نوع خاص منها ؛ وهي الحياة المتطاولة.."([4]).

---

(1)– مطلوب،اساليب بلاغية: ص98. انظر طبل، حسن، علم المعاني، مكتبة الإيمان بالمنصورة –1999ص148.

(2)–أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 70/1

(3) – انظر الكلبي، ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية،بيروت1995، ط1، 54/1

(4)–أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، : 168/1، الزمخشري، الكشاف: 168/1.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعبارة أبو السعود السالفة هي ذاتها عبارة الزمخشري في كشافه، أما ابن عاشور فقد قال في سر التنكير في لفظ "حياة" ما نصه: "ونكر الحياة قصداً للتنويع، أي كيفما كانت تلك الحياة.."([1]).

وقال مختار عطية: سر التنكير هو رهبتهم من الموت وخوفهم منه، والتفاتهم إلى تلك الحياة الهينة الضئيلة([2]).

وفي نهاية المطاف: لا تعارض في ما ذكره العلماء، فكون اليهود –الذين تصفهم الآية من له كتاب ومقر بالجزاء فزاد حرصهم على حرص المشركين، لأنهم علموا بحالهم أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك، ولو سألت لماذا أُفردوا بالذكر ؟ ذلك لأنه كان حرصهم على الحياة شديد، أشد من غيرهم.

إذاً فهم حريصون على حياة طويلة يقتضي كون تلك الحياة التي لا يهم فيها إلا أنها طويلة؛ حياة رخيصة ذليلة.

4.3 الإظهار والإضمار

من المسلّم به عند البلغاء أن الكلام يورد على مقتضيات الأحوال، وبحسب ما يقتضيه المقام، وعلى ذلك يجري نظم الكلام، ويكون ظاهر الحال هو الذي يحكم المتكلم؛وضابط ذلك كله هو قانون النحو العربي وقواعده. فيراعي قواعد العربية من تحدث بها،إظهاراً أو إضماراً ،تقديماً أو تأخيراً ،حذفاً أو ذكراً ...

"ومعلوم أن الأصل في مسألة الإضمار، والإظهار هو وضع كل من المضمر والمظهر في مكانه اللائق به، في الكلام فإذا خرج على خلاف مقتضى الظاهر.فإنما يخرج لنكتة بلاغية، ولغرض في سياق الكلام يريد المتكلم زيادة تقريره، أو تعميمه أو تعظيمه أو الاعتناء به أو العناية بما أسند أليه، أو لغرض آخر يسهم في تحديده سياق الحديث، وقرائن الأحوال،ويدرك ذلك من أوتي حظاً من البصر بأساليب البيان، وكان ذا حس بلاغي مرهف.

---

(1)– ابن عاشور، التحرير والتنوير: 617/1،

(2)– انظر عطية، علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم: ص98

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث إنه من غير اليسير حصر الأغراض البلاغية التي تتخلل الإظهار والإضمار عند خروجهما على خلاف مقتضى الظاهر"([1]).

لكونها متعلقة بالشواهد نفسها، ولأنها خاضعة لسياق النظم، ولذوق المتدبر.وسينجلي بعض نكاتها البيانية من خلال تحليل بعض الشواهد القرآنية في الآيات مثلاً المتضمنة لمعاني الجهاد؛ ومنها

قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "(البقرة:217)

لقد ورد لهذه الآية سبب نزول يزيد في توضيح نظمها، وخلاصتها:أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعث سرية من المسلمين أمّر عليهم عبد الله بن جحش الاسدي، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة بين مكة والطائف، ووجدوا بها عير تجارة لقريش عليها عمرو بن الحضرمي؛ فشدوا على ابن الحضرمي فقتلوه وغنموا عيره وكانوا يظنون أن اليوم من جمادى الآخرة فبان أنه من رجب ؛فبلغ ذلك قريشاّ ، وكان ابن الحضرمي أول قتيل بين المسلمين والمشركين _ فركب وفد من قريش حتى قدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا:أتحل القتال في الشهر الحرام؟ فأنزل الله تعالى الآية([2]).

وعلى ذلك فإن فاعل السؤال في قوله(يسألونك)هم المشركون،تعجباً من فعل سرية أبن جحش وتعييباً عليهم، ورغبة في تعظيم الانتقام منهم.وقيل:إن السائل هو عبد الله بن جحش وصحبه لماّ عَظُم الأمر لكون فعلهم في رجب المحرم([3]).

---

(1)- الزركشي، البرهان في علوم القرآن : 3/59-76، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن:3/216-220، وابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:2/213-215

(2)- انظر الواحدي، علي بن أحمد(ت:468هـ)، أسباب النزول، تحقيق السيد أحمد صقر، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت1987م، ط3، ص99، وانظر: علوي، ابن خليفة، جامع النقول في أسباب النزول وشرح آياتها، (1404)هـ، ط1، ج1/259-263.

(3)- الحموي، بدر الدين محمد بن إبراهيم، غرر التبيان في من لم يسم في القرآن، ت(733)هـ، تحقيق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكنّ الراجح هو القول الأول لأن سياق النظم متوجه إليه؛ فإن ضمير (ولا يزالون يقاتلونكم)عائد إلى المشركين بلا خلاف([1]).

والألف واللام في (الشهر الحرام) قد تكون للعهد، وذلك لأن القتل قد وقع في رجب المعهود حرمته في أذهانهم. ويحتمل كونها للجنس؛ فيراد به الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد،وسميت حرماً لتحريم القتال فيها([2]).

وإنما أبهم السؤال ليكون للنفس آلية التفات واعتناء؛ولذلك بيّنه ببدل الاشتمال([3])في قوله:"قتال فيه"،ونظراً لما بين البدل منه من كمال الاتصال فقد وقع الفصل بينهما بترك العاطف.

وهاهنا سؤال وهو: لِمَ قدم الشهر الحرام في الذكر، ولم يقل: يسألونك عن قتال في الشهر الحرام؟ وهم لم يسألوا عن الشهر إلا من أجل القتال فيه؛ فكان الاهتمام بالقتال وتقديم ذكره أولى في الظاهر.

والجواب أن يقال:"إنّ هذا السؤال لم يقع إلا بعد وقوع القتال في الشهر، وتشنيع الكفرة عليهم انتهاك حرمة الشهر؛فاغتمامهم واهتمامهم بالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر؛فلذلك قدم في الذكر وأخر القتال؛مع أنهما متآيلان،لكنّ التقديم حصل لقضاء حق الاهتمام، على أن في النظام الجاري عليه نسق الآية تشويقاً وذلك عن طريق الإجمال ثم التفصيل"([4]).

عبد الجواد خلف، دار قتيبة، 1990م، ط1، ص216 .

(1)– انظر الأندلسي، البحر المحيط: 149/2

(2)– المرجع نفسه :145/2

(3)– انظر البقاعي، نظم الدرر : 226/3

(4)– السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن، نتائج الفكر في النحو، (ت:581هـ)، تحقيق محمد إبراهيم ألبنا، دار الرياض للنشر والتوزيع، ص313،و ابن عاشور، التحرير والتنوير:325/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهنا النكتة في تنكير (قتال)الذي وقع عنه السؤال؛فإن الغرض من ذلك إرادة الجنس الذي يفيد العموم؛إذ ليس المسؤول عنه قتالاً معيناً ولا في شهر معين، بل المراد هذا الجنس في هذا الجنس([1]).

ولما انتهى السؤال شرع في إيراد الجواب بتوجيه الخطاب إلى من وجه إليه السؤال أصلاً ، وهذا أسلوب رفيع في الأدب القرآني الكريم؛فلم يجب عنه، ولم يطو ذكره، وإنما وجه إليه الخطاب ثم خُلّي بينه وبين السائلين ليكون هو المجيب؛وفي ذلك إكبار له في أعين المستجوبين أياً كانوا.

وفيه تشريف له وتكريم، حيث خاطبه مولاه الذي اصطفاه من بين الخلق أجمعين ليكون رسوله الأمين؛"قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ "(البقرة:217)؛وفي هذا الموضع سؤال وهو أنه أعاد لفظ القتال على سبيل الإظهار، وكان القياس أن يعاد بلفظ الإضمار؛فيقال – مثلا –:قل هو كبير؛كما لو سئل إنسان عن رجل في الدار ؛فإن مقتضى الظاهر أن يكون سياق الجواب:هو فلان، بلفظ المضمر؛لأن الإضمار– إذا عرف المعنى–أوجز وأولى([2]).فما سر ذلك؟ والجواب أن يقال:إن في إعادة لفظ الظاهر في الآية فائدة ونكتة بلاغية؛ وهي تحصيل عموم الحكم، ولو جاء بلفظ المضمر فقيل– مثلا–:هو كبير– على مقتضى الظاهر – لاختص الحكم بذلك القتال الواقع في تلك القصة، لكون الضمير معرفة ينصرف إلى القتال المسؤول عنه، وليس الأمر كذلك؛وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام ([3])، يضاف إلى ذلك:طلب الصراحة في الجواب، حتى لا يُتوهم أن الشهر الحرام هو الكبير، وليكون الجواب على قدر السؤال في اللفظ([4])، وفي ذلك منتهى الدقة.وذلك أنه حين قال:" قتال فيه كبير"جعل الاسم المخبر عنه (قتال)، وخصّه بالمجرور الذي هو ضمير الشهر؛فتعلق الحكم به على العموم متى وقع؛لأن اللفظ المضمر لا تقتضي صيغته إلا تخصيص الخبر بما يعود عليه([5]).

---

(1)– انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير:325/2

(2)– انظر: السهيلي، نتائج الفكر في النحو:313

(3)– المرجع نفسه: 313

(4)– انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 325/2

(5)– انظر السهيلي، نتائج الفكر في النحو: 313–314

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومهما يكن من أمر فإن الجواب في الآية تشريع إن كان السؤال من المسلمين، واعتراف وا ٍبكات إن كان السؤال إنكاراً من المشركين؛لأنهم توقعوا أن يجابوا بإباحة القتال فيثو ّروا بذلك العرب ومن في قلبه مرض([1]).

والذي يسترعي الانتباه في نظم الآية تنكير(قتال)الثاني؛والإعراض عن تعريفه؛ ذلك من حق النكرة إذا تكررت أن تجئ باللام، حتى يكون المذكور الثاني هو الأول، ومع ذلك فقد نكر(قتال) مرتين فما الغرض من ذلك؟

ممن أجاب عن ذلك الفخر الرازي فكان من جوابه:أن في التنكير الثاني تنبيها على القتال الذي يكون كبيراً ليس هو هذا الذي سألتم عنه، بل هو قتال آخر؛لأن هذا القتال الذي كان الغرض منه هو نصرة الإسلام وا ٍذلال الكفر؛

فكيف يكون هذا من الكبائر؟إنما القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هو هدم الإسلام وتقوية الكفر؛ فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة، ولو وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة الجليلة([2]).

والظاهر المتبادر أن إثبات كون القتال في الشهر الحرام كبيرا تمهيد للحجة على ما فعله عبد الله بن جحش– رضي الله عنه– وما عسى يفعله المسلمون من القتال فيه مبني على قاعدة لا ينكرها عقل، وهي ارتكاب أخف الضررين إذا لم يكن بد من أحدهما، ولا شك أن القتال في نفسه أمر كبير وجرم عظيم،وإنما ي ُرتكب لإزالة ما هو أعظم منه([3]) ؛ ولذلك ناسب أن يلي ما تقدم من الآية قوله:"وصدٌّ عن سبيل الله" وصد وما عطف عليه مرفوع بالابتداء وخبرها "أكبر عند الله "([4]).

والمعنى:أن القتال الذي سألتم عنه كبير ٌإلا أن ّ هذه الأشياء أكبر منه وأعظم جرماً ؛ فإذا لم تمتنعوا عنها في الشهر الحرام فكيف تعيبون عبد الله ابن جحش على ذلك القتال الذي لم يقصد إيقاعه في الشهر الحرام أصلاً ([5]).

---

(1) – انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير:325/2

(2)– انظر الرازي، التفسير الكبير:31/6

(3)– انظر رضا، المنار، 316/2

(4)– انظر الرازي، التفسير الكبير:32/6

(5)– الرازي، التفسير الكبير: 32/6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصدُّ:الصرف والمنع، والغالب أنه يصحبه إكراه وإعنات([1]).

والمراد بالصدّ عن سبيل الله تعالى منع من يريد الإسلام من الدخول فيه([2]).

وقيل:سبيل الحج؛ لأنهم صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة([3]). والأول أولى لكون الثاني داخلا فيه ومتفرعا عنه وقد نكّر (صد) لإرادة العموم فهو شامل لأي صد مهما كان([4]) مادام مقيداً بكونه صداً (عن سبيل الله).

(وكفر به) أي بالله فالضمير عائد إلى أقرب مذكور([5])، وإنما سلك سبيل الإضمار ولم يظهر جرياً على مقتضى الظاهر. (والمسجد الحرام) معطوف على (سبيل الله) فهو متعلق بـ(صدّ) تبعاً لتعلق متبوعه به، فيكون المعنى: وصدٌّ عن المسجد الحرام.

وفي نظم الآية نكتة نبّه إليها ابن عاشور فقال: "واعلم أن مقتضى ظاهر ترتيب نظم الكلام أن يقال: وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به وصدٌّ عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله تعالى، فخولف مقتضى هذا النظم إلى الصورة التي جاءت عليها الآية؛ بأن قدم قوله (وكفر به) فجُعل معطوفاً على (صدّ) قبل أن يستوفي (صدّ) ما تعلق به وهو (والمسجد الحرام) فإنه معطوف على (سبيل الله) المتعلق بـ(صدّ)، والداعي إلى هذا الترتيب هو أن يكون نظم الكلام على أسلوب أدق من مقتضى الظاهر، وهو الاهتمام بتقديم ما هو أفظع من جرائمهم؛ فإن الكفر بالله أفظع من الصدّ عن المسجد الحرام؛ فكان ترتيب النظم على تقديم الأهم فالأهمّ؛ فإن الصدّ عن سبيل الإسلام يجمع مظالم كثيرة؛ لأنه اعتداء على الناس فيما يختارونه لأنفسهم، وجحد لرسالة رسول الله، والباعث لهم عليه انتصارهم لأصنامهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ "(ص:5).

---

(1)- انظر الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، (ت:535هـ)، دار المعرفة –بيروت، ص276،و البقاعي، نظم الدرر:226/3

(2)- انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير:329/2

(3)- انظر الأندلسي، البحر المحيط:146/2

(4)- انظر البقاعي، نظم الدرر: 226/3

(5)- انظر رضا، المنار: 316/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليس الكفر بالله إلا ركناً من أركان الصدّ عن الإسلام، فلذلك قدم الصدّ عن سبيل الله، ثم ثني بالكفر بالله ليفاد بدلالة المطابقة بعد أن دل عليه الصدّ عن سبيل الله بدلالة التضمن، ثم عد عليهم الصدّ عن المسجد الحرام ثم إخراج أهله منه"([1]).

و(إخراج أهله منه) المراد بأهل المسجد هم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون، وسماهم أهلاً وأضافهم إلى ضمير المسجد لكونهم الأحق والأجدر والأخص به من المشركين، فقد قصر الله ولاية المسجد عليهم وحدهم دون سواهم في قوله: "وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (الأنفال:34).

فأخبر تعالى أن المشركين قد خرجوا بشركهم عن أن يكونوا أولياء المسجد ثم قصر ولايته على المتقين.

(أكبر عند الله) أفعل تفضيل واقع خبراً عن المذكورات السابقة، وهو تفضيل في الإثم، أي كل واحد من المذكورات السابقة أعظم إثماً مما سألتم عنه([2])، وقد حذف المفضل منه لظهور العلم به ولإرادة العموم والعندية المضافة إلى الله تعالى عندية العلم والحُكم.

ولما كان ما ذكر آنفاً ضروباً من الفتن ناسب نظم اسم الفتنة بعد ذلك والنص عليها، فقال: (والفتنة أكبر من القتل).

والفتنة: التشغيب، والإيقاع في الحيرة، واضطراب العيش، فهي اسم شامل لما يعظم من الأذى الواقع على فرد واحد أو جماعة من غيرهم. وقد أريد ما لقيه المسلمون من المصائب في الدين بالتعرض لهم بالأذى قولاً أو فعلاً ([3]).

يقول ابن القيّم إجمالاً لمعنى ما تقدم: "والمقصود أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام، بل أخبر أنّه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في

---

(1)- ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/329-330

(2)- ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/329-330

(3)- انظر: الجوزيّة، ابن قيّم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، 1991م، ط25، 3/168-170

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشهر الحرام؛فهم أحق بالذم والعيب والعقوبةلاسيما وأولياؤه كانوا متأو ّلين في قتالهم ذلك أو مقصد ّرين نوع تقصير يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات والهجرة مع رسوله وا ٕيثار ما عند الله؛ فهم كما قيل:

وا ٕذا الحبيب أتى بذنب واحد * جاءت محاسنه بألف شفيع

فكيف يقاس ببغيض عدو جاء بكل قبيح ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن؟"([1]).

ولما أخبر سبحانه أن الفتنة عن الدين وتعذيب المسلمين أكبر من القتل، وأن فعل ذلك صادر من المشركين على المسلمين ناسب عندئذ أن ينتظم بما تقدم قوله "لا َ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا" (البقرة:217) ليكون بياناً لاستحكام عداوتهم وا ٕصرارهم على الفتنة في الدين([2]).

مما سبق نستنتج أهم اللطائف:

1- معنى (لا يزالون) أي أنهم يدومون على ذلك الفعل؛ لان الزوال يفيد النفي؛ فإذا أُدخلت عليه"ما"كان نفياً للنفي؛ فيكون دليلاً على الثبوت الدائم([3]).

2- التعبير عن المقاتلة بصيغة المضارع(يقاتلونكم) تنبيه إلى أنهم يجددون ذلك الفعل تارة بعد أخرى، كلما لاحت لهم فرصة؛ فهذا شأنهم؛ فكونوا على حذر منهم.([4]) وفي تسليط فعل المقلة وا ٕيقاعه على ضمير المخاطبين تهييج لهم.

3- أن علة المقاتلة المذكورة وغايتها هي إخراج المسلمين من دينهم الحق وقد كشف عن ذلك أداة الغاية في قوله: (.. حتى يردوكم عن دينكم) والمعنى أن فتنتهم وقتالهم يدوم إلى أن يحصل غرضهم، وهو أن يردوكم عن دينكم([5])، وليس هذا مقصور على كفار ذلك الزمان،وا ٕنما دأب الكفار في كل الأزمان ؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(1)-الجوزي ّة، زاد المعاد في هدي خير العباد: 170/3

(2)- انظر: أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 217/1

(3)- انظر: الرازي، التفسير الكبير: 35/6

(4)- انظر: البقاعي، نظم الدرر: 231/3

(5)- انظر: البقاعي، نظم الدرر: 231/3،و ابن عاشور، التحرير والتنوير:331/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

4- إضافة الدين إلى المخاطبين فيه إلهاب لحماستهم على التمسك به؛ إذ إنّه من النفاسة بمكان، مما حمل الكفار على ارتكاب تلك الأفعال، فقد أكسبت الإضافة المضاف إليه شريفاً وتعريفاً، حتى عرفوا بهذا الدين ونسبوا إليه، فصاروا ينادون بـ"المسلمين".

5- في قوله: (إن استطاعوا) تعريض بأنهم لا يستطيعون رد المسلمين عن دينهم؛ فموقع هذا الشرط موقع الاحتراس مما قد توهمه الغاية في قوله:(حتى يردوكم عن دينكم)، ولهذا جاء الشرط بحرف (إن)المشعر بأن شرطه يفيد الشك في وقوع جوابه([1]). يقول الزمخشري:"(إن استطاعوا) استبعاد لاستطاعتهم؛ كقول الرجل لعدوه: إن ظفرت بي فلا تُبق علي. وهو واثق بأنه لا يظفر به"([2]).

ومن عرف الإسلام معرفة صحيحة - وهو الحق الصراح - لا يرجع عنه إلى الكفر - وهو الباطل المفضوح - وهكذا كان، وهكذا يكون فلا يزال الكفار يقاتلوننا ليردونا عن ديننا إن استطاعوا، ولم يستطيعوا، ولن يستطيعوا، بحول الله تعالى وقوته([3]).

وقوله:" ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر" جملة معترضة أو معطوفة على ما قبلها؛ قصد منها التحذير الشديد للمخاطبين من خطر الردة؛ لأنه لما ذكر حرص المشركين على رد المسلمين عن الإسلام،وعقّبه باستبعاد أن يصدر ذلك من المسلمين - أعقبه التحذير منه ([4]).

وجيء بصيغة(يرتدد) - مفكوكة الإدغام - وهي صيغة مطاوعة تفيد التعمّل والتكسّب- إشارة إلى أن من ذاق حلاوة الإيمان لا يسهل عليه رجوعه عنه، وأن ذلك يكون بتكلف وعناء([5]).

---

(1) - انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 331/2

(2)- انظر: الزمخشري، الكشاف: 126/1

(3)- انظر: رضا، المنار: 318/2

(4)- انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 332/2

(5)- انظر: الأندلسي، البحر المحيط: 150/2،و ابن عاشور، التحرير والتنوير: 332/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله(منكم) زيادة من استحضار المخاطبين وتهديد الخارجين عن الدين، ومن تبعيضية([1]).

وقوله:" [عن دينه] فيه إظهار مقام الإضمار؛ فقد كان مقتضى الظاهر أن يقال: عنه؛ بقرينه قوله:"حتى يردوكم عن دينكم" وبتكرار لفظ الردة مرة أخرى في قوله:"ومن يرتدد منكم" وهذا ينصرف إلى الردة عن الدين عندما يذكر الضمير عنه. ولكن خولف ذلك؛ فلم يجر التعبير الكريم على المقتضى الظاهر ؛ وا إنّما أظهر لفظ الدين مرة أخرى وأضيف إلى ضمير المرتد لنكتة بلاغية؛ وهي تذكير المرتد بعظمة هذا الدين، وانه هو اختاره ودخل فيه بطواعيته واختياره من غير قسر ولا إكراه، ولذلك أضيف إليه؛ فقيل:(دينه)، كما أن في ذلك إثارة لحميته،ودغدغته لغيرته؛ إذ كيف يغيّر وسمه الذي وسُم به، وينخلع من دينه الذي تعامل مع الناس من خلال آدابه وتوجيهاته ؛ فذلك عار دنيوي ناهيك عن الشنار الأخروي.

وقوله(فَيَمُت) معطوف على الشرط المتقدم بالفاء المشعرة بتعقيب الموت على الكفر بعد الردة واتصاله بها، ورتب على ذلك حبوط عمل الفاعل في الدنيا والآخرة"([2]).

يقول ابن عاشور:" وقد أشار العطف في قوله:"فيمت" بالفاء المفيدة للتعقيب إلى أن الموت يعقب الارتداد، وقد علم كل احد أن معظم المرتدين لا تحضّر آجالهم عقب الارتداد ؛ فيعلم السامع حينئذٍ أن المرتد يعاقب بالموت عقوبة شرعية؛ فتكون الآية بها دليل على وجوب قتل المرتد..([3]).

وقوله:"فأولئك" إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الارتداد والموت عليه، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم في الشر والفساد ([4]).

---

(1)- انظر: المرجع نفسه: 150/2

(2)- انظر الأندلسي، البحر المحيط : 150/2

(3)- انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 335/2، (ثم ذكر ابن عاشور أقوال العلماء في المرتد)، والجامع لأحكام القرآن: 46/3-48

(4) – انظر أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 217/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتلى باسم الإشارة مجموعاً حملاً على معنى الموصول وفقاً لسنة الله في كتابه يقول الزركشي:" إذا اجتمع الحمل على اللفظ والمعنى بدئ باللفظ ثم بالمعنى ؛ هذا هو الجادّة في القرآن "([1])، وعلى هذا جرى نسق التعبير الكريم فقد روعي لفظ الموصول (من) فأفرد"يرتدد فيمت وهو كافر" ثم روعي معناه فجمع (فأولئك)، يقول أبو حيان:"وعلى هذا الأفصح جاءت هذه الآية "([2]).

أكثر أبو السعود من التنبيه إلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز البلاغي، ولعل تنبيهه على الإظهار والإضمار من أكثر ما يجده القارئ من النكات. أذكر من ذلك: في تفسير قوله سبحانه: "قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ " (البقرة: ٣٣)، يقول مبيناً سبب إظهار كلمة "بأسمائهم" الثانية، "إذ الأصل أن يقال: أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بها. لكننا نرى أن النص عدل عن الإضمار، وهو التعبير بالضمير إلى التصريح بالكلمة، وهو مخالف للأصل من تركيب الكلام، فما السر في ذلك؟ يقول أبو السعود:

وإظهار الأسماء في موقع الإضمار، لإظهار كمال العناية بشأنها، والإيذان بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الإجمال، والمعنى: فأنبأهم بأسمائهم مفصلة، وبين لهم أحوال كل منها وخواصه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد، فعلموا ذلك لما رأوا أنه عليه السلام لم يتلعثم في شيء من التفاصيل التي ذكرها.."([3]).

5.3 الاستعارة

إن هناك وجه علاقة بين الاستعارة الحقيقة والاستعارة المجازية، وممن كشف عنها ابن الأثير، حيث قال:" الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي أن يستعير الناس من بعض شيئاً من الأشياء، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة ما؛ يقتضي استعارة أحدهما من الآخر

---

(1)– انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن : 440/3

(2)– انظر: الأندلسي، البحر المحيط :151/2

(3)–أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 116/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيئاً، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئاً؛ إذ لا يعرفه حتى يستعير منه، وهذاالحكم جارٍ في استعارة الألفاظ بعضها من بعض؛ فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين شخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما إلى الآخر(1)".

وكلام ابن الأثير المتقدم يقودنا إلى التعريف الاصطلاحي للاستعارة فهي: لفظ استعمل في غير موضع له في أصل اللغة لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى المتجوَّز له مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي(2).

أنه من المعلوم في اللغة أن السين والتاء تفيد الطلب؛ فكأن وجودها في كلمة "الاستعارة" إشعار بأن الذي يشبه معنى بمعنى وينقل لفظه إليه يطلب جريان اسمه عليه، وذلك مبالغة في دعوى الاتحاد بينهما(3).

ومبنى الاستعارة قائم على التشبيه، وذلك بحذف أحد طرفيه؛ ولهذا فقد حازت على محاسن التشبيه وزادت عليه، بجمال التصوير، ودقة التعبير، وحسن التأثير مع الإيجاز.

ولقد أبان عبد القاهر الجرجاني عن جمال الاستعارة وأظهر بعضاً من أسرار جمالها في التعبير وأثرها في نظم الكلام، حيث قال:" هي أمد ميداناً، وأشد افتتانا وأكثر جرياناً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسع سعة وأبعد غوراً، وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها..."(4).

---

(1)- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:ج1/82-83، وانظر العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2/130-131، ج1/1972.

(2) - انظر أقوال علماء البيان في تعريفها مجموعة في: شيخون، محمود، الاستعارة نشأتها- تطورها- أثرها في الأساليب العربية، دار الطباعة المحمدية، ط1، 1977م، ص5-90، و الصاوي، أحمد، فن الاستعارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب1979م، ص19-28.

(3)- انظر :الصاوي، فن الاستعارة، ص20.

(4)- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، علق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط1-1991م، ص42-43.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسر من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر.."([1]).

وعن أثرها على المعنى والأشياء المستعملة فيها يقول عبد القاهر:" فإنك لترى بها الجماد حياً نطقاً ،والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جليةوإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها ولا رونق لها ما لم تزنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيونوإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون"([2]).

ويقول أسامة بن منقذ:" والاستعارة أوكد في النفس من الحقيقة، وتفعل في النفوس ما لا تفعله الحقيقة"([3]).

والخلاصة أن الاستعارة من أبلغ الألوان البيانية وأروعها، وبلاغتها ترجع إلى حسن تصويرها، وانتقاء ألفاظها، ووفاء إيجازها([4]).

وليس المقام هنا بسط لأنواع الاستعارات وأقسامها وحدودها وتعريفاتها فإن لذلك موضعه في كتب البلاغة([5])وإنما سأشير إلى ما يقع بين أعيننا من الاستعارات القرآنية الواردة في المعاني الجهادية، مما كان لها الأثر العظيم في إبراز تلك المعاني، وإخراجها في صور فذة نادرة، ذلك أن الاستعارة في كتاب الله تعالى تميزت بصفاء

---

(1)- المرجع نفسه: ص 42-43.

(2)- المرجع نفسه:42.

(3)- أبن منقذ، أُسامة، البديع في البديع، تحقيق علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ط1- 1987م: 71.

(4)- انظر: الصاوي، فن الاستعارة: 109.

(5)- انظر على سبيل المثال: الجرجاني، أسرار البلاغة: 42 وما بعدها، وابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 75/2-121، والعلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : 197/1-260.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لفظها، وحسن تصويرها، ودقة موضعها، وتمكين المعنى من خلالها، مع وضوحها، وتألق المعنى في لفظها، مما جعل الأذهان–على اختلاف مداركها– تتعلق بها.

ومن الآيات التي ورد فيها غير استعارة واحدة قوله تعالى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ" (البقرة:214).

يقول الزمخشري معللاً موقع(أم) ورابطاً معنى الآية بما قبلها:" (أم) منقطعة، ومعنى الهمزة فيها للتقرير وإنكار الحسبان واستبعاده، ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات"([1]) تشجيعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له– قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ (أم حسبتم)([2]).

والحسبان في الأصل من الحساب وهو العد([3])، ولكنه في الآية استعمل بمعنى الظن، تشبيهاً لجولان النفس في استخراج علم ما يقع بجولان اليد في الأشياء لتعيين عددها([4])، والجامع بينهما محاولة الوصول إلى العلم في النهاية، والعلم في الحساب أدق وأتم، وهو الظن أنقص وأبعد عن الجزم، ولذلك وقع تشبيه الناقص بالتام، والعقلي بالحسي، تقريباً لمعناه في الذهن،حتى يقع تصوره في النفس موقعاً معلوماً .

ولما كانت الاستعارة جارية في الفعل: حسب الذي هو بمعنى عد أصلاً؛ فهي استعارة تبعية تصريحيه.

---

(1)– في الآية المتقدمة على هذه الآية وهي قوله تعالى: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (البقرة:213).

(2)– الزمخشري، الكشاف:124/1.

(3)– انظر الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: 116.

(4)– انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 314/2.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد أريد من وراء استعمال الحسبان بمعنى الظن تقريب المظنون به إلى صور ة المجزوم بعلمه؛ ولذلك وقع الإنكار والتقرير على من ذهب هذا المذهب؛ بدخول (أم) الإضرابية التي هي بمعنى: بل وهمزة الإنكار([1]) أي: بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يقع لكم ما وقع لغيركم؟، فالمعنى على إنكار هذا الحسبان ونفيه([2]). وهذا هو الغرض البلاغي التصويري الذي جلبته هذه الاستعارة في نظم الآية.

والألف واللام في (الجنة) للعهد الذهني، أي: الجنة التي بشرتم بها، والمعهود في أذهانكم دخولها إذا آمنتم.

وقوله (ولما يأتكم...) جملة حالية، والتقدير: أحسبتم أن تدخلوا الجنة غير آتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم؛ أي: إن دخول الجنة لا بد أن يكون على ابتلاء شديد وصبر، وليس ذلك لمجرد الإيمان فقط([3]).

والنفي ب(لما) مفيد توقع حدوث فعل الإتيان، ذلك أن (لما) في النفي نظيره (قد) في الإثبات، فالمعنى أن إتيان ذلك متوقع منتظر([4]).

والمثل: هو المشبه، وقد استعير هنا للحال الغريبة، أو للقضية العجيبة التي لها شأن([5])؛ بجامع الاشتهار والتميز في كل منهما. وهي على هذا استعارة تصريحيه أصلية؛ لكونها قد جرت في المصدر نفسه. وفي ذلك إيماء للمؤمنين بضرورة تميز حالهم وتفرد أحوالهم عن غيرهم من الكفار؛ بأن يقع لهم ما يمحص إيمانهم، ويظهر مقدار صبرهم، وعلى قدر الأذى والصبر عليه يكون الجزاء والثواب، قال تعالى:"إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب"(الزمر:10).

وا ِسناد (مثل) إلى فعل الإتيان مجاز الحصول والوقوع؛ لأن المثل لا يأتي بنفسه، إنما يقع من الوقائع والملمات ما يجعلها مثلاً في اشتهارها وظهور أمرها. ولكن لما كان

---

(1)- انظر الأندلسي، البحر المحيط: 139/2.

(2)- أي دعوى ذلك الحسبان وانزعوا عنه؛ انظر: الألوسي، روح المعاني:103/2.

(3)- انظر الأندلسي، البحر المحيط : 140/2.

(4)- انظر الزمخشري، الكشاف: 124/1.

(5)- انظر الأندلسي، البحر المحيط: 140/2.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشيء يحصل بعد عدم جعل بمثابة الآتي من مكان بعيد([1])، وعلى هذا يمكن إجراء استعارة مكنية في (مثل)؛ فقد شبه مثل ما وقع للمؤمنين الأولين وما سيقع لأسلافهم بقادم من مكان؛ بجامع الحضور والمثول، وحذف المشبه به ورمز له بأحد لوازمه، وهو الفعل (يأتكم)؛ لأن الإتيان من لوازم الإنسان، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، وفائدة هذه الاستعارة في نظم الآية ومعناها إشعار المخاطبين بأن شبههم يغيرهم واقع فيهم وقوع الحضور من إنسان شرع في الإتيان إلى مكان معينفهو قادم وإن تلبث قليلاً، غاية ذلك أن يهيئوا أنفسهم لتحمل المصائب والرزايا، فسلعة الله غالية وهي الجنة، وقد حفت بالمكارة، وأما النار فقد حفت بالشهوات، قال الشاعر أبو فراس الحمداني (ومن يخطب الحسناء لم يُ غلها المهر). ونهاية الحسن والحسان في جنان الرحمن، ولا ينال ذلك إلا بالاحتساب المؤسس على الإيمان.

والموصول في موضع صفة لموصوف محذوف دل عليه سياق الآية فهي في خطاب المؤمنين، كما دل عليه قرينة (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه..)، والتقدير: ولما يأتكم مثل المؤمنين الذين خلوا...وقد حذف إيجازاً، واعتماد على السياق؛ إذ لا يمكن أن ينصرف الذهن إلى غير المؤمنين.

والمراد بالخلو: المضي والانقراض، والأصل في هذا الفعل أن يسند إلى المكان، فيقال: خلا المكان من أهله؛ ولكن بولغ في إسناد الفعل حتى أسند إليهم ما هو من صفات مكانهم لملابستهم له وإقامتهم فيه([2]).

وقوله (من قبلكم) متعلق ب(خلوا)هو في المعنى الخلو ؛ لأن معنى كون أولئك قد مضوا وخلا منهم مكانهم أنهم قبل المخاطبين بأزمان، فوقوع الخلو بعد ظرف القبلية بمثابة التأكيد لمعناه([3]) والبيان له وفي ذلك إظهار للملابسة بين الفريقين([4])؛ الأولين الماضين، والمتأخرين الذين في شأنهم –وفي شأن من بعدهم– الخطاب.

---

(1)– انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 315/2.
(2) – انظر ابن عاشور،التحرير والتنوير: 315/2.
(3)– انظر الأندلسي، البحر المحيط: 140/2.
(4)– انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 316/2.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله (مستهم البأساء..)، أصل المس: يطلق على جس الشيء باليد([1])وا ٍدراكه بحاسة اللمس([2])، ومنه مسيس النار، وهو أثرها الظاهر على الجسم، قال تعالى:" ذوقوا مس سقر"(القمر:48).

والبأساء: اسم جامع للشدة من الفقر والمسكنة والخوف. وأما الضراء فهي في الآفات والشرور والآلام([3]).

وقد جعل ابن عطية البأساء في المال، والضراء في البدن([4])، وهو محمل حسن([5]).

وقد استعير المس لوقع البأساء والضراء على المؤمنين بجامع حدوث الأثر في كل منهما، ثم اشتق من المس الفعلمس ّ ؛ وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيةوالفائدة من استعارة المس ّ في هذا المعنى تصوير مدى ما لحق بالمؤمنين وأثر في حالهم حتى كأن تلك البأساء والضراء التصقت بأجسامهم؛ وزاد من هذا التصوير إسناد فعل المس إليهما حتى أصبح المس أمراً واقعاً على الحقيقة من قوة التشبيه.

ولك أن تجري الاستعارة في (البأساء والضراء) فتشبيها بأمر يحس الجسد ويؤلمه، بجامع إحداث الأثر من كليهما، وقد حذف المشبه به، ودل عليه بلازم من لوازمه وهو فعل المس ّ ، وعلى ذلك تكون الاستعارة مكنيةوا ٍجراؤها فيها يمنع من إجرائها في لازمها (مستهم) في وقت واحد.

وعطف الضراء على البأساء تشريك لهما في الوقوع والحصول، وهو إشارة إلى اقترانهما في الغالب؛ فإن من لازم الفقر وانعدام المال وقوع الآفات والأمراض والشرور

---

(1)– انظر ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادةمس ّ ، ص928.

(2)– انظر الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن:467.

(3)– انظر الرازي، التفسير الكبير: 19/6، و النيسابوري، حسن بن محمد، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية بيروت 1996م، ط1، ج348/1، انظر أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : 168/1 :216/2.

(4)– انظر الأندلسي، أبي محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز: ت:546هـ، تحقيق المجلس العلمي – فاس– المغرب 1979م 155/2.

(5)– انظر: العسكري، أبو هلال، الفروق في اللغة: منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت– لبنان1979م، ط3، ص192.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والآلام، وذلك قرن بينهما هنا كما قرن بينهما في قوله تعالى: "والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون "(البقرة:177).

وفصل "مستهم البأساء والضراء" عما قبله لكونه بياناً للمثل المذكور في الآية؛ فهو استئناف؛ كأن قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل: مستهم البأساء، والضراء...([1]).

وقوله (وزلزلوا) جملة معطوفة على (مستهم) مفيدة أن فعل الزلزلة وقعت بهم مضمومة إلى فعل المس المذكور، وقد تكون هذه الزلزلة نتيجة من نتائج البأساء والضراء ناتجة عن شدة أثرهما. وقد تكون فعلاً آخر قائماً بنفسه له طبيعته وآثاره المميزة.وأصل الزلزلة من أزل الشيء عن مكانه، فإذا قلت: زلزلته فتأويله: أنك كررت تلك الإزالة، فضوعف لفظه بمضاعفة معناه([2]). والزلزلة تقع على الثوابت المادية كالأرض، ومن قوله تعالى:" إذا زلزلت الأرض زلزاله"(الزلزلة:1).

ووجه الاستدلال هنا إنها جرت في حق المؤمنين تشبيهاً لاضطرابهم وشدة خوفهم بالزلزلة التي تحرك الأرض وتهزها هزاً عنيفاً يغير طبيعتها، ويؤثر على ما فوقها من قائم العمران. ثم اشتق من الزلزلة الفعل المبني للمجهول، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

والمراد أنهم حُركوا وأُزعجوا بأنواع البلايا والرزايا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة الأرضية([3]). وتكرير الزاي واللام إشعار بتكرير الإزعاج مرة بعد مرة([4]).

وبناء فعل الزلزلة للمجهول فيه طي لذكر الفاعل، وقد يكون ذلك مشعراً بأن فاعل الزلزلة من كثرة أنواعه وتعدد أجناسه تعذر إسناد الفعل إليه؛ فطوي ذكره، واكتفى بذكر الفعل نفسه ومن وقع عليه هذا الفعل وهم المؤمنين، وقد يكون الحذف هنا من باب الأدب مع فاعله؛ لأن فاعله في الحقيقة هو الله عز وجل؛ لحكمة يعلمها سبحانه.

---

(1)- انظر : الزمخشري، الكشاف: 124/1،والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان : 216/2.

(2)- انظر الرازي، التفسير الكبير: 19/6. وقد جعل ابن جني أشباه ذلك تحت عنوان: باب في قوة اللفظ لقوة المعنى.

(3)- انظر النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان : 2/ 216.

(4)- انظر الأندلسي، البحر المحيط، 138/2.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولك أن تتصور شدة هذه الزلزلة وذلك المس بالبأساء والضراء؛ الذي بلغ منهم كل مبلغ، وأخذ يقيمهم ويقعدهم، ووصل الأمر بهم ذروته إلى حد جعل الرسول ومن معه من المؤمنين إلى أن يقولوا:(متى نصر الله) وعلى ذلك فـ(حتى) غائية([1]).

ومع أن القول من الرسول والمؤمنين قد مضى وقوعه وزمنه، ومع ذلك فقد استحضرت صورة ذلك القول بصيغة المضارع، وهو مشعر بمبلغ ما وصل إليه حالهم في الشدة وانتظار الفرج والنصر وتقديم ذكر الرسول على المؤمنين وإفراده بالذكر من بينهم لشرفه فيهم ولأن الله قد شرفه بالرسالة، فهو القدوة لهم وهم تبع له.

ولفظ (الرسول) اسم جنس، فأل فيه للاستغراق أي:كل رسول وليس رسولاً معيناً ، وإنما ذكر هنا تعظيماً للنازلة التي دعت الرسول إلى هذا القول([2]).

والغرض من عطف الموصول على (الرسول) هو إظهار ما في حيز الصلة من الإيمان والنص عليه بالفعل الماضي المشعر بتلبسهم بالإيمان وعقد قلوبهم عليه فهو قد وقع منهم وثبتوا عليه، وفي ذلك إظهار لشرف الإيمان وثناء على أهله، ودعوة لهم للاستمساك به ودوام ملازمته. وفي ذكر لفظ إشعار للصحابة على وجه الخصوص بأن كل نبي يبعث في أمته يناله وينال من معه من المؤمنين مزيد أذى وبلية قد تفوق ما يقع على غيرهم، لكونه يدعو الناس إلى أمر هو جديد عليهم مخالف لما اعتادوه من مألوف العبادات الضالة والعادات المنحرفة، الأمر الذي يجعلهم يثورون عليه ويلحقون الأذى به ويمن معه؛ ففيه تربيص لنفوس الصحابة خصوصاً ولمن جاء بعدهم عموماً ، وترويض لأذهانهم بأن ما مر على غيرهم من المؤمنين فهو طريقه إليهم؛ فلا ينبغي لهم أن يستغربوه، أو يستنكروا وقوعه؛ فهي سنة الله تعالى في تمحيص عباده وتخليص أوليائه من درن المعاصي.

وقوله "متى نصر الله" سؤال عن وقت النصر، قيل ذلك على سبيل الدعاء لله تعالى، والاستعلام لوقت النصر([3])، وفيه معنى الاستبطاء، واستطالة زمان الشدة.

---

(1)- المرجع نفسه : 140/2.

(2)- انظر الأندلسي، المحرر الوجيز: 156/2.

(3)- انظر الأندلسي، البحر المحيط : 140/2.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الزمخشري:" بلغ بهم الضجر، ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك؛ ومعناه: طلب النصر وتمنيه، واستطالة زمان الشدة. وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العظم؛ لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها"([1]).

وقوله "آلا إن نصر الله قريب" يحتمل أن يكون استئنافاً من كلام الله عز وجل جواباً عن سؤال الرسول والمؤمنين على تقدير القول، أي: فقيل لهم ذلك إسعافاً لمرامهم، وجواباً لطلبهم، وتطيباً لأنفسهم([2]).

ويحتمل أن تكون جملة "آلا إن نصر الله قريب" من قول الرسول جواباً عن سؤال المؤمنين المتقدم؛ فيكون في الآية لف ونشر غير مرتب، وقد وضح ذلك أبو حيان، فقال:" والذي يقتضيه النظر أن تكون الجملتان داخلتين تحت القول، وأن الجملة الأولى من قول المؤمنين؛ قالوا ذلك استبطاء للنصر وضجراً مما نالهم من الشدة.

والجملة الثانية من قول رسولهم جواباً لهم وا ٍعلاماً بقرب النصر؛ فتعود كل جملة لمن يناسبها..."([3]).

وفي تصدير الجواب بأداة التنبيه، وبحرف التوكيد، والجملة الاسمية من الدلالة على تحقق مضمونها وتقرير خبرها ما لا يخفى([4]). وهذه المؤكدات تجعل مجموع البأساء والضراء والزلزلة ليست بشيء في جانب نصر الله المؤكد قرب وقوعه. وفي جعل لفظ الفاصلة (قريب) سوق عاجل البشرى بالنصر للمؤمنين وقت نزول النص وما بعده، كما أن فيه تكريماً لهم لإيمانهم وصبرهم عليه، فكانت هذه الفاصلة دواء، وبلسماً شافياً ، شفت القلوب، وأسعدت النفوس، وجعلت كل مؤمن يتطلع إلى ربه، ويترقب نفحات نصره.

---

(1)– الزمخشري، الكشاف: 124/1.

(2)– انظر الزمخشري، الكشاف: 124/1،و الجمل، سليمان بن عمر، الفتوحات الإلهية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج170/1،و الألوسي، روح المعاني: 104/2.

(3)– الأندلسي، البحر المحيط : 140/2.

(4)– انظر أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 215/1 و الجمل، الفتوحات الإلهية: 170/1.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

6.3 التشبيه

الشّين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً؛ يقال شِبه وشَبَه وشَبيه "([1]). شبه الشيء بالشيء أقمته مقامه بصفة جامعة بينهما.([2]).

وهذا التعريف الأخير لا يختلف عن التعريف الاصطلاحي للتشبيه؛ فقد عرف بأنه:" إلحاق أدنى الشيئين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها، واختلفا في كيفيتها قوة وضعفاً"([3]). وهو تعريف لطيف فيه إشارة إلى عملية التشبيه وتلويح بغرضه، وهذا التعريف أوفى وأتم من تعريف الخطيب القزويني([4])؛ حيث عرف التشبيه بأنه:" الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى"([5]). إن كان تعريف الخطيب قد راعى التشبيه المقلوب.

ومهما يكن من الأمر فإن التشبيه ضرب من التصوير؛ يمكن المعاني في النفوس ويغريها بها؛ وممن فطن إلى ذلك ونص عليه ابن الأثير؛ حيث يقول:"وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به، أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً

---

(1)- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: مادة: شبه، ص526.

(2)- الفيومي، أحمد محمد، المصباح المنير، مطبعة مصطفى الباني الحلبي بمصر: مادة: شبه.

(3)- الحموي، أبن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال بيروت- ط1، 1987م، ص384

(4)- محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي(666 – 739)هـ المعروف بخطيب دمشق. قاض من أدباء الفقهاء.أصله من قزوين، ومولده بالموصل.(الزركلي ،الأعلام 192/6)

(5)-القزويني، الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، ت 739هـ، شرح محمد خفاجي، دار مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.ص121.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حسناً يدعو إلى الترغيب فيها، وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنفير عنها، وهذا لا نزاع فيه"([1]).

ولقد وقع– قبل ابن الأثير– عبد القاهر الجرجاني على أثر التمثيل في إبراز المعاني بما لا مزيد عليه؛ حيث قال:" واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أُبَّهةً ،وكسبها منقبةً ، ورفع من أقدارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأجلب للفرح، وأغلب على المُمتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرّ المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تَعلَقه القلوب وأجدر ([2]).

وأما تشبيهات القر آن الكريم فيقول عنها العلوي:" إن لها مقاصد عظيمة، ومُضمنةً لأغراض دقيقة، يعقلها من ظفر بهذه الصناعة بأقل حظ، وكان له فيها أدنى ذوق، وحام حول تلك الدقائق بذهن صاف عن كدورة البلادة؛ فعن قريب يحصل على البغية بلطف الله تعالى وحسن توفيقه"([3]). على أنه" لم يكن التشبيه في القران هدفاً يقصد إليه بدون أن يستتبع المعنى ويكون جزءاً أساسياً تتوقف عليه دلالة الآية؛ فهو نمط من أنماط التصوير القرآني الذي أعجز بلغاء العرب، وظل شامخاً في مجال القول، ومعجزة باهرة تتردد عبر العصور؛ فلم يتناولها البلى أو التفكك؛ فالتشبيه إذن ليس محسناً خارجاً عن إطار المضمون، يتجمل به النظم وترشق به العبارة؛ إنما هو جوهر داخل المضمون ليتضح أثره النفسي"([4]).

سأدع القول في تشبيهات القر آن إلى التطبيق على بعض آيِه التي تصور المعاني الواردة في شأن الجهاد.

---

(1)– ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 2/130–131

(2)– العلوي،الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 115–116.

(3)– المرجع نفسه، 2/130–131

(4)– عامر، فتحي أحمد، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم،، منشأة المعارف– الإسكندرية 1988م

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن ذلك قوله تعالى: "مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ "(البقرة:261).

يقول القرطبي عن موضوع هذه الآية:" وهذه الآية لفظها بيان مثال لشرف النفقة في سبيل الله ولحسنها، وضمنها التحريض على ذلك"([1]).

وهذه الآية واردة في شأن الإنفاق في سبيل الله، وأعظمه ما يقوم عليه الدين ويعزّ به جانب المؤمنين، ويكثر بسببه سواد المسلمين، وهو الجهاد في سبيل الله إلى يوم الدين. يؤيد ذلك ما ذكره" القرطبي" في سبب نزولها؛ حيث قال:" هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما حث الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك جاءه عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال: يا رسول الله كانت لي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربي؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت". وقال عثمان: يا رسول الله علي جهاز من لا جهاز له؛ فنزلت الآية فيهما. وقيل: نزلت في نفقة التطوع. وقيل: نزلت قبل آية الزكاة، ثم نسخت بآية الزكاة، ولا حاجة إلى دعوة النسخ؛ لأن الإنفاق في سبيل الله مندوب إليه في كل وقت، وسبل الله كثيرة، وأعظمها الجهاد؛ لتكون كلمة الله هي العليا"([2]).

وفي الآية من بدائع النظم وروائع التشبيه ما يمكن إجمال ما تيسر منه في لآتي:

1. الذي يظهر في معنى المثل في الآية أنه بمعنى: الصفة([3])؛ فهي كقوله تعالى: " مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ."(محمد:15) أي صفتها([4]).

---

(1)– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن : 303/3

(2)– المرجع نفسه : 303/3.

(3)– انظر الأندلسي، البحر المحيط: 302/2.

(4)– انظر الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص462.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى هذا فالآية إخبار عن الوصف الذي ستشبه به حال نفقة المنفقين أموالهم في سبيل الله، ومقدار ثوابها. يقول ابن القيم: وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض"([1])، فالغرض من التشبيه في الآية بيان مقدار الثواب في حق المشبّه.

2.في الآية محذوف مقدّر؛ واختلف في تقديره:" فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة، وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة؛ ليطابق الممثّل للمثّل به؛ فههنا أربعة أمور: منفق، ونفقه، وباذر، وبذر؛ فذكر اله سبحانه من كل شق قسميه؛ فذكر من شق المثل المنفق؛ إذ المقصود ذكر حاله وشأنه، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها، وذكر من شق المثل به البذر؛ إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة، وترك ذكر الباذر؛ لأن القرض لا يتعلق بذكره؛ فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز لغاية البيان، ففي الآية إحتباك؛ فقد حذف من الأول ما يدل عليه الثاني؛ بحذف نفقة، أو حذف من الثاني ما يدل عليه الأول؛ إذا قدر أن المحذوف: باذر"([2]).

3. الغرض من إيراد اسم الموصول هو بناء المثل على صلته، والصلة هي المادة التي دار عليها نظم الآية، وهي النفقةوفي مجيء مادة الإنفاق بصيغة المضارع إيماء إلى أنه كلما تجدد فعل الإنفاق من المنفقين وحدث فإن ثوابه بمثل ذلك ويتجدد ويحدث تبعاً له فيتضاعف من جهات كثيرة، وفي ذلك حفز لهمم المنفقين ما بعده حفز.

4. في إضافة الأموال إلى المنفقين تخصيص لها بهم، وتمليك لهم عليها؛ فما فائدته؛ مع أن الذي خلقهم- سبحانه- هو الذي وهبها لهم؟ فلم لم يضفها إليه باعتبار الأصل ثم يحثهم على بذلها في سبيله؟.

لعل الغرض من إضافة الأموال إلى منفقيها هو إشعارهم بأنها هي ملكهم شرعاً وعرفاًوبناء عليه فإنه لا مُكرِه لهم على هذه النفقة، فالمال مالهم، والحق حقهم؛ وهم أحرار في هذا المضمار، فمن أنفق وجادت يده بالنفقة، وطابت بها نفسه فقد وقع أجره

---

(1)- الجوزية، ابن القيم، التفسير القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار العلوم الحديثة، بيروت- لبنان، ص154.

(2)- الجوزية، التفسير القيم : 155، وانظر الأندلسي، البحر المحيط: 303/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الله بهذا الخبر الصادق المذكور في الآية مثاله، ومن بخل واستغنى؛ فإن الله غني عنه، وهو في الآخرة من الخاسرين([1]).

5. أن تفيد النفقة بكونها [في سبيل الله] يفيد أمرين:-

أولهما:- أن بذل النفقة ينبغي أن يكون عن نية خالصة ونفس طيبة، فلا ينبغي أن يخالطها رياء أو سمعة أو حب ثناء أو نحوها مما ينقص أجرها أو يزيله بالكلية، فقبول الأعمال موقوف على سلامة النيات، وخلوصها من المكدرات.

وثانيهما:- أن موضع النفقة هو طريق الله الموصل إليه وأخصه وأعظمه ما كان في سبيل إعلاء كلمته ونشر دينه وا ٍقامة شريعته ومد بساط الدعوة إليه وهذا في الجهاد خاصة([2])،

وذلك بتجهيز المجاهدين، والإنفاق على عوائلهم، وتجهيزهم بالأسلحة اللائقة بعصرهم، وتلبية دعوة ولي الأمر إذا دعا إلى ما من شأنه تقوية جيش المسلمين وتنظيمه، وشراء ما يحتاجه أفراده من معدات وآليات، وسائر ما تقوم عليه شوكة الجهاد. على أن عموم وجوه البر داخله في النفقة المذكورة فيندرج في هذا السبيل نشر العلوم الشرعية وسائر العلوم النافعة بطباعة كتبها وتوزيعهاءوا ٍنشاء المدارس والمعاهد التي تدرسها، والنفقة على القائمين عليها من مدرسين وطلاب، ومن ذلك جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين وأبناءهم، وكذلك النفقة على المحتاجين من الفقراء والأيتام والمساكين، وسد الحاجات، ودفع الكربات، والإعانة على دروب الطاعة والخيرات مما لا سبيل إلى حصره.

6. في جعل المشبه به [حبة] لطيفة، كشف عنها ابن القيم حيث قال:" ومثله-سبحانه- بهذا المثل إحضاراً لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيبت في الأرض فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني؛ فيقوى إيمان المنفق وتسخو نفسه بالإنفاق"([3]). وما

---

(1)- الجوزية، التفسير القيم: 304/2

(2)- انظر الرازي، التفسير الكبير: 44/7،و القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 303/3.

(3)- الجوزية، التفسير القيم: 154،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذكره ابن القيم في نهاية كلامه هو الغرض من التشبيه وثمرته. وقد عبر عن ذلك أحد المعاصرين بقوله:" فالغرض من التمثيل في هذا النص مع بيان حقيقة مضاعفة ثواب المنفقين في سبيل الله إلى أضعاف كثيرة جداً – إثارة محور الطمع بفضل الله في نفس المخاطبين؛ ليكون هذا الطمع محرضاً ذاتياً في الأنفس على بذل الأموال في سبيل الله"([1]).

7. لسائل أن يقول: لم اختيرت "الحبة" لتكون هي دون سواها مشبهاً به؟. ممن أجاب على ذلك أبو حيان فقال موجزاً :" وشبه الإنفاق بالزرع؛ لأن الزرع لا ينقطع"([2]). وقال ابن عاشور:"وجعل أصل التمثيل في التضعيف حبة لأن تضعيفها من ذاتها لا بشيءْ يزاد عليها"([3]).

ويضاف إلى ما ذكر من هذه الأجوبة أن الحب ومشتقاته هو من أهم ما يقتات عليه بنو آدم من الأطعمة فهو أكثر زادهم، كما يسهل غرسه وحصده وذروه، ثم إن زرعه يسر الناظرين؛ فإذا نضج استفيد من قصبه وورقه في إطعام البهائم التي تدر اللبن، ومنها اللحم والكساء والغطاء، والتنقل والترحل. أما حبه فهو إذا طحن عمل منه الخبز وسائر الأطعمة الطيبة؛ فلما تعلق الناس به على اختلاف أجناسهم في حياتهم الدنيوية ناسب أن يُضرب به المثل لما يحفزهم إلى الآخرة؛ بعد أن تصوروا عدم غنائهم عنه في قوتهم الدنيوي، وهذا يقودهم إلى المسابقة في بذل النفقات في سبيل الله لتحصيل تلك الخيرات المضاعفة، بعد أن عاينوا هذا المثل ورأوا ثماره وعجائب ثمره؛ فما في الآخرة أعجب حالاً وأحسن مالاً .

---

(1)– الميداني، عبد الرحمن حسن، الأمثال القرآنية، دار القلم، دمشق– بيروت، ط1، 1985م، ص63.

(2)– الأندلسي، البحر المحيط: 304/2

(3) – ابن عاشور، التحرير والتنوير : 41/3.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

8. هذا التشبيه من باب تشبيه المعقول بالمحسوس([1])؛ لإيضاح أمر المعقول، وبيان مقدار أضعافه؛ حيث شبه بأمر محسوس وهو هيأة معلومة مدركة بالنظر والمشاهدة، و هو أدعى إلى تصور مقدار المشبه وتمكن قيمته في نفس المنفق.

9. كون المشبه به الزرع دل على تميزه، وعلو شأنه في الحِرف، يقول القرطبي:" في هذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس، والمكاسب التي يشتغل بها العمال، ولذلك ضرب الله به المثل فقال:" مثل الذين ينفقون أموالهم..."الآية، وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال:" ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة".... والزراعة من فروض الكفاية؛ فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها وما كان في معناها من غرس الأشجار.."([2]).

10. في تنكير[حبة] غرض بلاغي؛ وهو إفادة التعظيم، أي كحبة عظيمة النفع موصوفة بما ذكر؛ إذ ليس كل الحب كذلك.

11. من المعلوم أن منبت النبات هو الله وحده القادر على الإحياء والإماتة، فكيف وقع إسناد الإنبات إلى الحبة في قوله "أنبتت سبع سنابل"؟.

يقول الزمخشري:" والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء"([3]).

12. لماذا خص عدد السنابل ب[سبع] دون سائر الأعداد؟.

ممن أجاب على ذلك بشيء من التفصيل أبو حيان؛ حيث قال:" واختص هذا العدد لأن السبع أكثر أعداد العشرة، والسبعين أكثر أعداد المائة، وسبع مائة أكثر أعداد الألف، والعرب كثيراً ما تراعي هذه الأعداد؛ قال تعالى:"سبع سنابل "(البقرة:261) و"سبع ليالٍ "(الحاقة:7) و"سبع سنبلات "(يوسف:46) و"سبع بقرات "(يوسف:46) و"سبع

---

(1)– انظر الألوسي، روح المعاني:32/3،و ابن عاشور، التحرير والتنوير:41/3

(2)– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 305/3–306، البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، تحت رقم(2320)

(3)– الزمخشري، الكشاف: 149/1، الأندلسي، البحر المحيط :304/2

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سَمَاوَاتٍ "(فصلت:12)، "سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا"(يوسف:47)، "إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً"(التوبة:80)، "ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا"(الحاقة:32)([1]).

13. ثم لماذا وقع تمييز العدد سبعة كثرة مع أن العدد نفسه عدد قلة؛ فلم يطابقه كما وقعت المطابقة في قوله تعالى:(وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات...)(يوسف:46)؟.

ممن سدد في هذا الجواب ابن القيم؛ فقد قال:" وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل وهي من جموع الكثرة؛ إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى:(وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات..)؛ فجاء بها على جمع القلة؛ لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير"([2])؛ فسياق النظم ومقتضى حال المعنى وغرض المقام هو الذي اقتضى التكثير والتقليل في الآيتين.

14. قد يقال: كيف تنبت الحبة سبع سنابل؟ فيجاب عن ذلك: بأن المعنى أن تخرج ساقاً يتشعب منه سبع شعب، في كل شعبة منها سنبلة، وهذا التمثيل صورة مرئية للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر([3]).

15. هل يوجد في السنبلة مائة حبة؟

يقول ابن عطية في ذلك:" قد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبة، وأما في سائر الحبوب فأكثر، ولكن المثل وقع بمائة"([4]). والأمر في ذلك راجع إلى خصوبة الأرض وجودة الحب وحسن الري.

16. لقد ورد في الذكر الحكيم أن الحسنة بعشر أمثالها؛ كما في قوله تعالى:" مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "(الأنعام:160). وفي الآية التي نحن بصددها إخبار منه- عز وجل- بالزيادة عن ذلك بل بمضاعفة الحسنات؛ فكيف يمكن التوفيق بينهما؟.

---

(1)- الزمخشري، الكشاف: 304/2

(2)- الجوزية، التفسير القيم: 154-155

(3)- الزمخشري، الكشاف: 149/1

(4)- الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 310/2.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقد أورد القرآن بأن الحسنة في جميع أعمال البر بعشر أمثالها، واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف، ([1])، واختلف العلماء في معنى قوله(والله يضاعف لمن يشاء) فقالت طائفة: هي مبينة ومؤكدة لما تقدم من ذكر السبع مائة، وليس تضعيف فوق سبعمائة، وقالت طائفة من العلماء: بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف ([2]). وقد رجح القرطبي القول الثاني([3]).

17. في قوله(والله يضاعف لمن يشاء) حذف، فقيل في تقديره: والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء؛ وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه لصفات المنفق وأحواله، وفي شدة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع، وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك فلا يقتصر على السبعمائة، بل يجاوز في هذه المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة"([4]).

وفي التعمية على المضاعف لهم وعدم ذكر صفاتهم مزيد حفز المنفقين للتعرض لنفحات الرحمن، وذلك بإسخاء النفقة، وطيب النفس بها، وتحقيق الإخلاص في بذلها فإن ذلك كله من مظان نيل تلك المضاعفة.

18. ما مناسبة ختم هذه الآية الكريمة بقوله(والله واسع عليم)؛ ؟

لقد أحسن ابن القيم في الوصول إلى مناسبة الفاصلة للآية، حيث قال:" ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما الواسع والعليم؛ فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة، ولا يضيق عنها عطنه؛ فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق؛ فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها؛ فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته؛ بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه.([5]).

---

(1)- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن : 303/3

(2)- الأندلسي، المحرر الوجيز: 310/2

(3)- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن : 305/3

(4)- الجوزية، التفسير القيم: 155

(5)- الجوزية، التفسير القيم : 155

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

7.3 الالتفات([1])

أسلوب بلاغي معروف عند أهل اللغة، وقع استعماله في كتاب الله كثيراً، كأسلوب يعتبر من أساليب التفنن البلاغي، ينبئ عن قدرة المتكلم على إجادة التصرف في الكلام. ومن أمثلة هذا النوع ما نجده في قول الله تبارك وتعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا ... ي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "(البقرة:٢١)،

تناولت الآيات السابقة لهذه الآية أنواع الناس وأصنافهم على سبيل الغيبة، ثم نجد النص القرآني انتقل من ذلك إلى الخطاب الواضح في الآية الكريمة.فما سر ذلك؟ يجيبنا أبو السعود على عادته في التنبيه إلى أجمل اللطائف بقوله:

"أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزا لهم إلى الإصغاء، وتوجيها لقلوبهم نحو التلقي، وجبرا لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب"([2]).

ومن الأمثلة على هذا النوع من أنواع البلاغة المعجزة التي نبه عليها خطيب المفسرين "أبو السعود، ما جاء في قول الحق: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا ... يْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ... ا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ " (البقرة: ٨٣).

ففي بداية الآية كان الكلام عن ميثاق الأسلاف من بني إسرائيل، ثم لما ذكر التولي توجه به على سبيل الخطاب إلى الحاضرين منهم، يقول أبو السعود: "التفات إلى خطاب بني إسرائيل جميعا، بتغليب أخلافهم على أسلافهم، لجريان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة، فإن الخطابات السابقة لأسلافهم محكية داخلة في حيز القول المقدر قبل (لا تعبدون)، كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم، فنعيت هي عليهم،وإن جعل خطابا لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا تعميم للخطاب بتنزيل

---

(1)– الالتفات: "التعبير عن معنى الطرق الثلاثة: التكلم والخطاب والغيبة، بعد التعبير عنه بواحد منها"، انظر: ألمطعني، عبد العظيم "الالتفات"، بحث منشور ضمن "الموسوعة القرآنية المتخصصة"، 508، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 2002 .

(2)– الألوسي، روح المعاني:203/1، الزمخشري، الكشاف: 52/1،والرازي، محمد عمر الملقب بفخر الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي– بيروت ط1– 2000م:356/1.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأسلاف منزلة الأخلاف، كما أنه تعميم للتولي فينزل منزلة الأسلاف للتشديد في التوبيخ.."([1]).

وهناك أمثلة قصيرة أوردها على سبيل الاختصار ([2]):

قوله تعالى"وا ٍذ قلنا للملائكة" (البقرة: 34) صيغة الجمع للتعظيم وهي معطوفة على قوله"وا ٍذ قال ربك"وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة وا ٍظهار الجلالة.

وقوله تعالى"إذ قال له ربه أسلم"(البقرة:131) من باب الالتفات إذ السياق (إذ قلنا) والالتفات من محاسن البيان والتعرض بعنوان الربوبية (ربه) لإظهار مزيد من اللطف والاعتناء بقربه، ولذلك جاء جواب إبراهيم على هذا المنوال فقال: أسلمت لك للإيذان بكمال قوة إسلامه والخشوع والخضوع وحسن الطاعة.

وقوله تعالى" أن تسترضعوا أولادكم"(البقرة:233).

فيها إيجاز بالحذف أي تسترضعوا المراضع لأولادكم، ثم فيها التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن ما قبله(فإن أرادا فصالا) وفائدة هذا الالتفات هز مشاعر الآباء نحو الأبناء.

8.3 الدقة في اختيار الألفاظ

يلحظ البليغ أثناء تلاوته كتاب الله تعالى حسن انتقاء ألفاظه ودقة اختيارها، بما هو خارج عن القدرة البشرية على ذلك،فهي ألفاظ تختال جمالاً وتألقاً ، وتنساب عذبة في الفم، خفيفة على اللسان، تستلذ بها الأسماع، وتستطيبها الأنفس. ولعل من أسس البلاغة وأركانها: وضع اللفظ المناسب في المكان الذي هو به أخص، مع مراعاة التناسب مع جو السياق العام. وقد جاء في تفسير أبي السعود من هذا الباب مادة غزيرة، وللترتيب والتبويب وجدت من المناسب أن أقسم المبحث إلى مطالب قصيرة،

---

(1)–أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 123/1

(2)– سلامة، محمد حسين، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، دار الأفاق العربية– القاهرة2002م، ط1، ص22–33–48

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمثل كل مطلب منها مجموعة من الأمثلة على ما أورده فيها، إلا أنه يجدر بي أن أشير إلى أن التقسيم لم يقم على الحصر وإنما هو ضرب من التمثيل.

1.8.3 سر اختيار صيغة بنائية للكلمة دون صيغة أخرى

إن من أسرار التعبير القرآني أسراراً بلاغية تختص باختيار صيغة بنائية للكلمة دون غيرها. من ذلك قوله تبارك وتعالى: "وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" (البقرة: ٤)

يبين لنا أبو السعود سبب التعبير بالماضي في "أنزل" الأولى، مع أن الكتاب لم يتم نزوله إلى ساعة نزول الآية الكريمة، فيقول: "والتعبير عن إنزاله بالماضي مع كون بعضه مترقبا حينئذ، لتغليب المحقق على المقدر، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع – لتحققه– منزلة الواقع، كما في قوله تعالى: "قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ "(الأحقاف:٣٠)، مع أن الجن ما كانوا سمعوا الكتاب جميعا،ولا كان الجميع إذ ذاك نازلاً .."(1).

مثال آخر من تفسيره لنفس الآية، حيث يأخذ في بيان السر في بناء الفعل "أنزل" لما لم يسم فاعله، فيقول:"وبناء الفعلين للمفعول للإيذان بتعين الفاعل، وأجري على سنن الكبرياء"(2)

وكأنه يقول: إن منزل هذا الكتاب لا يحتاج إلى تعيين، إذ إن الذي يحتاج إلى تعيين هو من قد يلتبس بغيره، لكن مثل هذا الكتاب في إحكامه وإعجازه لا يمكن أن ينزله إلا الله سبحانه. وهذا ما يسمى بسنن الكبرياء، أي الطريقة التي تقتضيها الكبرياء والعظمة في التعبير والكلام، فإن للكبراء سنة معينة يتكلمون على وفقها.

ولننظر في قوله تعالى: "يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ "(البقرة: ٩)، نجد أن سبب إيثار التعبير بالمفاعلة في قوله: "يخادعون"، فيقول: " لإفادة المبالغة في الكيفية فإن الفعل متى غُولِب فيه بُولغ فيه قطعاً ، أو في

(1)–أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 33/1

(2)– المرجع نفسه:33/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكمية، كما في الممارسة والمزاولة، فإنهم كانوا مداومين على الخدع"([1]). وحاصله أن التعبير عن مخادعة المنافقين بهذه الصيغة البنائية، لعله يشير إلى أمرين يخدمان المقام:

الأول: أن صيغة المفاعلة في لغة العرب تفيد إجادة كيفية الفعل المصاغ منه، والثاني: أنها تفيد دوامه ومزاولته، فالمنافقون –على هذا– هم أساتذة كبراء في النفاق والمخادعة.

2.8.3 سر التعبير ببعض حروف المعاني دون بعضها الآخر

حروف المعاني حروف تحمل معنى يظهر في غيرها، لها دور في إعراب ما بعدها، وما يعنينا هنا، سر التعبير ببعض هذه الحروف دون بعضها الآخر في مواضع قد يتبادر إلى الذهن أن الأصل اختيار الآخر.

وهذه المسالة لها تعلق بمسألة قد اختلف فيها أهل اللغة، وهي: مسألة التناوب بين حروف الجر، فقد ذهب قوم إلى جواز التناوب بينها، وأن هذه الحروف قد يقع بعضها موقع بعضها الآخر بلا علة في البلاغة تقتضيه. وذهب آخرون إلى نفي ذلك، وتوجيه ما قد يشكل منها مما احتج به الأولون توجيها بلاغياً له علاقة وثيقة بالمعنى. "والحق أن الأصل في حروف الجر أن لا ينوب بعضها عن بعض، بل الأصل أن لكل حرف معناه واستعماله"([2]).

والدارس لتفسير أبي السعود لا يتردد في نسبة هذا القول إليه، لما يظهر من توجيهه لاستعمال هذه الحروف في غير ما هو الأصل. من ذلك ما ذكره عند تفسير قوله سبحانه: "أولئك عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (البقرة: ٥)، حيث بين سر التعبير بـ "على"، حرف الاستعلاء في هذا الموطن، فقال: وإيراد كلمة الاستعلاء بناء على تمثيل حالهم في حال ملابستهم بالهدى بحال من يعتلي الشيء ويستولي عليه ويتصرف فيه كيفما يريد، أو على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة عن

---

(1)– أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 40/1

(2)– السامرائي، فاضل، معاني النحو، العاتك لصناعة الكتب، القاهرة–2003م 7/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تشبيه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه، أو جعلها قرينة للاستعارة بالكناية، بين الهدى والمركوب، للإيذان بقوة تمكنهم منه، وكمال رسوخهم فيه"([1]).

وبعد النظر في تعليل استعمال هذا الحرف في هذا المكان، لا نعدو الصواب إذا قررنا أن أي حرف آخر استعمل في هذا المكان لا يؤدي الغرض الذي أداه حرف الاستعلاء.

3.8.3 سر اختيار الكلمة القرآنية

امتازت العربية بوفرة كلماتها في المعنى الواحد، إلا أن المحققين من أهل التفسير واللغة قرروا أن بين الألفاظ المتشابهة نوع فرق وإن دق– والنص القرآني– كما ذكر– معجز من جهة اختياره اللفظ الأليق بالمقام على وجه لم يعهده البشر.

والشواهد التطبيقية على هذا المعنى وفيرة، منها قول الله تبارك وتعالى:"أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ "(البقرة:١٩)، حيث أن

سر إيثار لفظ "الجعل" على "الإدخال" مع أنه المتبادر،وإيثار لفظ "الأصابع" على "الأنامل" مع أن المعتاد أن الأنامل هي التي تجعل في الآذان لا الأصابع بكليتها، يقول:و"إيثار الجعل المنبئ عن دوام الملابسة واستمرار الاستقرار على الإدخال المفيد مجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل؛ للمبالغة في بيان سد المسامع باعتبار الزمان، كما أن إيراد الأصابع بدل الأنامل للإشباع في بيان سدها باعتبار الذات، كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها فحسب كما هو المعتاد،ويجوز أن يكون هذا إيماءً إلى كمال حيرتهم، وفرط دهشتهم، وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح على النهج المعتاد"([2]).

وهذا الكلام في الغاية من التصوير البليغ، الذي يضيف إلى المعنى الذي وصفت فيه حال المنافقين صورة لا يخفى ما فيها من التهكم بحالهم، تدعو إلى العجب.

---

(1)–أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 33/1

(2)– أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 53/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الأمثلة –أيضا– ما ذكره في تفسير قول الله سبحانه: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ " (البقرة: ٢٦)، يعقب أبو السعود على سر التعبير بعنوان الربوبية في قوله (من ربهم)، فيقول:

"والتعرض إلى ضمير الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم، وللإيذان بأن ضرب المثل تربية لهم وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كمالهم اللائق بهم.."([1]). ولو أدرنا كلام العرب على إبدال هذه الكلمة بغيرها لما وجدنا ما يؤدي الغرض، أو يتوصل به إلى المعنى الدقيق الذي حملته هذه الكلمة.

وفي قوله سبحانه: "وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (البقرة: ٧٦)، نلاحظ أن التعبير بـ"الفتح"، جاء للإيذان بأنه سر مكنون، وباب مغلق لا يطلع عليه أحد، وهذا المعنى الذي أوحت به الكلمة إشارة لطيفة إلى ما عليه اليهود من تشدد في كتم ما أنزله الله عليهم، وكلفهم بتبيينه للناس وما جاء في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم([2])

ولعل من المواضع الجميلة أيضاً سر التعبير بالصبغة في قول الله تعالى: "صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ " (البقرة: ١٣٨)، حيث قال المفسرون: "الصبغة..هي الحالة التي يقع عليها الصبغ، عبر بها عن الإيمان..لكونه تطهيرا للمؤمنين من أوضار الكفر، وحلية تزينهم بآثاره الجميلة، ومتداخلا في قلوبهم كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك.."([3]).

---

(1)–أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، : 74/1

(2)– الزمخشري، الكشاف :104/1 ، أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،:117/1

(3)– انظر الأندلسي، البحر المحيط:46/2، النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، 348/1، انظر أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، :168/1.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

4.8.3 سر التعبير بالجملة الاسمية أو الفعلية

لكل من الجملتين الاسمية والفعلية أغراضها البيانية ومميزاتها البلاغية، وليس المقام مقام استطراد في هذا إلا أن المصادر التي تعنى بهذا الموضوع كثيرة، وقد نعلم أن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستقرار، أما الجملة الفعلية فتفيد الحدوث والتجدد، وعلى كل فإن هذه المعاني في لكتاب الله عز وجل، كثيرة، وسوف أُرد بعض الأمثلة على ذلك والتي فيها أجمل اللطائف والإشارات. ومثاله، في قول الله سبحانه: مَن ...لُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ " (البقرة: ٨)، حيث جاء سر التعبير بالجملة الاسمية (وما هم بمؤمنين) مع أن المتبادر أن يقال: "ولم يؤمنوا" حتى يوافق ذلك قولهم:"آمنا"، بل للدلالة على ثبات حالهم على النفاق واستمراره.

وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة في الرد بإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة ليس في الماضي فقط كما تفيده الفعلية"([1]).

ومثل ذلك في قول الله تبارك وتعالى: آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا ...يَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ "(البقرة: ١٤)، فالمنافقون – كما تصورهم الآية – حريصون على إخفاء طويتهم الفاسدة أمام المؤمنين، ولذلك قالوا: (آمنا)، هكذا على الجملة الفعلية، أما أمام شياطينهم من مردة الكفر والنفاق فإنهم قالوا: "إنا معكم إنما نحن مستهزئون"، حيث عبروا عن إخلاصهم لهم بالجملة الاسمية لا بالفعلية كما كان يتبادر؛ جرياً للكلام على نسق واحد.

يبين أبو السعود رحمه الله السر في ذلك ببيان مفصح، فيقول:وإنما خاطبوهم بالجملة الاسمية المؤكدة، لأن مدعاهم عندهم تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين، والتأكيد للإنباء عن صدق رغبتهم، ووفور نشاطهم لا لإنكار الشياطين، بخلاف معاملتهم مع المؤمنين ؛ فهم إنما يدعون عندهم إحداث الإيمان، لجزمهم بعدم رواج ادعاء الكمال فيه، أو الثبات عليه.."([2]). مثال أخير– والأمثلة كثيرة– في كتاب الله سبحانه: ...مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي

---

(1)– انظر الألوسي، روح المعاني: 1/146–147، انظر أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، : 1/40

(2)–أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم:1/46

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ "(البقرة: ١٣٠)، يقول أبو السعود مبينا سر التعبير بالجملة الاسمية في قوله (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) ما نصه: وإيثار الاسمية لما أن انتظامه في زمرة صالحي أهل الآخرة أمر مستمر في الدارين، لا أنه يحدث في الآخرة والتأكيد بأن واللام لما أن الأمور الأخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها إلى التأكيد أشد من الأمور التي تشاهد آثارها"([1]).

5.8.3 سر اختيار فواصل الآيات

نعني بها تلك الكلمة التي تُختم بها الآية من القرآن، وربما سميت بذلك: لأن بها يتم بيان المعنى، ويزداد وضوحه جلاء وقوة، فمكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من بيت الشعر، إذ تصبح الآية لبنة متميزة في بناء هيكل السورة.

وتنزل الفاصلة من آيتها، تكمل من معناها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها،تعلقاً تاماً ،وارتباطاً يجعل من الآية بكليتها باقة متناسقة الألوان، تربو على الطبيعة البشرية في التعبير والتنسيق بحيث لو طُرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها.

روي أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ" ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كَفَرَ "(القمر:13-14) بفتح الكاف، فقال الأعرابي: لا يكون، فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء([2]).

والأمثلة على ذلك كثيرة لا حصر لها في كتاب الله تعالى بشكل عام، وفي سورة البقرة خاصة التي هي مدار بحثنا، واليكم منها:

---

(1)- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم:163/1

(2)- الجاحظ، البيان والتبيين:174/2، قال الزمخشري:كُفِر هو نوح عليه السلام، وجعله مكفوراً ، لأن النبي نعمة مكفورة، قال تعالى"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" فنوح عليه السلام نعمة مكفورة، ومن هذا المعنى يحكى أن رجلاً قال للرشيد: الحمد لله عليك، فقال، ما معنى هذا الكلام: قال: أنت نعمة حمدت الله عليها. الزمخشري، الكشاف:435/4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآيات التي تنتهي بوصفه سبحانه بالحكمة، تجد فيها ما يناسب تلك الحكمة، قال تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة:220)

ألا ترى المقام وهو مقام تشريع وتحذير يستدعي عزة المحذر، وحكمة المشرع، وقوله تعالى: "ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" (البقرة:32) فالمقام هنا مقام للتعليم، ووضع هذا التعليم في موضع دون سواه، فناسب ذلك وصفه تعالى بالعلم والحكمة([1]).

ومثال آخر قوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (البقرة:216)

أنتبه أخي في الله إلى أهمية الفاصلة هنا ومكانتها التي جاءت بها، والتي لا يمكن لفاصلة أخرى أن سد وتحل مكانها.

يُخاطب الله تعالى المومنين، وقد كتب عليهم القتال والجهاد، ويبين أن أمر المستقبل لا يدركونه هم، فربما يكرهون شيئاً يكون فيه خيرهم، وربما يحبون شيئاً تكون في نهايته شراً لهم، ووبالاً عليهم، إن الله وحده هو الذي يعلم ذلك.

بالله عليك أي فاصلة تصلح لهذه الآية غير التي خُتمت بها "والله يعلم وأنتم لا تعلمون"([2]).

ومثال آخر: "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ" (البقرة:40- ٤١)،

---

(1)- بدوي، من بلاغة القرآن:65-66

(2)- عباس، فضل حسن و سناء فضل عباس، إعجاز القران الكريم، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان ط4- 2001م:223

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم يَفُت العلماء أن يتنبهوا إلى سر ختم الأولى بقوله: (وإياي فارهبون)، بينما ختمت الثانية بقوله: (وإياي فاتقون).

قالوا: "ولما كانت الآية السابقة – أي الأولى – مشتملة على ما هو كالمبادئ لما في الآية الثانية، فصلت بالرهبة التي هي من مقدمات التقوى، أو لأن الخطاب بها لما عمّ العالِم والمُقلّد، أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين، وأما الخطاب في الثانية، فحيث خُص بالعلماء، أمر فيها بالتقوى الذي هو المنتهى.."([1]).

ومثال آخر قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ "(البقرة:11، 12، 13)

لما كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض وتلك قضية تتعلق بالحواس الظاهرة، ختمت بقوله"ولكن لا يشعرون" لأن المشاعر هي الحواس، ولما كانت القضية الثانية تتعلق بالسفه، وهو الجهل ناسب أن تختم بالعلم([2]).

وكذلك في قول الله سبحانه: "أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ "(البقرة: ٧٥)، قال أبو السعود عند تفسيره لهذه الآية يبين الملحظ في اختيار هذه الفاصلة، إذ إنها "مؤذنة بأن تحريفهم ذاك لم يكن بناء على نسيان ما عقلوه، أو على الخطأ في بعض مقدماته، بل كان ذلك حال كونهم عالمين مستحضرين له، أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومفترون"([3]).

وأمثلة هذا النوع كثيرة، بل لعل القارئ لا يحتاج إلى شيء منها خطر بباله إلا وجد منها في هذا القرآن العظيم ما يروي به ظمأه، ويهدئ به قلبه، وتقر به عينه.

---

(1)– انظر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص77–78، أنظر أبو السعود، أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 96/1

(2) – عباس، إعجاز القرآن الكريم:225، انظر الزمخشري، الكشاف:65/1

(3)–أبو السعود،إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 116/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

9.3 أسرار التشابه والتنوع في النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام

1.9.3 الدعاء بالأمن.

في سورة البقرة تحكي دعوة إبراهيم بالأمن للبلد على النحو التالي "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا " (البقرة:126).

وفي سورة إبراهيم على النحو التالي "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا " (إبراهيم:35).

فالدعوتان متشابهتان في النظم مع وجود تنوع يتمثل في تنكير لفظ البلد في البقرة وتعريفه بلام العهد في إبراهيم.

ففي درة التنزيل وغرة التأويل:على وجهين:**احدهما:**أن يقال إن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جُعل بلدا، فكأنه قال:**اجعل** هذا الوادي بلداً آمنا.وعليه فـ**(**هذا**)** مفعول أول، و(بلدا) مفعول ثاني، و(آمنا) صفه([1]).

وان الدعوة الثانية وقعت وقد جُعل المكان بلدا فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته بلدا ذا أمنٍ على من أوى إليه. وعليه فـ(هذا) مفعول أول، و(البلد) بيان أو صفه و**(**آمناً) مفعول ثاني.وبذلك عُرف اللفظ حيث كان بلدا معروفا بالبلدية،ونُكر حيث كان مكاناً من الأمكنة غير مشهور بالتميز عنها بخصوصية فن عمارة وسكنى الناس.

والوجه الثاني أن تكون الدعوتان واقعتين بعد ما صار المكان بلداً وإنما طلب من الله تعالى أن يجعله آمناً ، وهذا ظاهر في قوله" اجعل هذا البلد آمنا" في إبراهيم.

أما في البقرة قوله"اجعل هذا بلدا آمناً "فيكون التقدير اجعل هذا البلد بلداً آمناً ، وبناء على هذا التقدير يكون المطلوب هو الأمن بعدما صار بلداً . فهو مثل المطلوب في إبراهيم([2]).

قال الزمخشري: فان قلت:أي فرق بين قوله"اجعل هذا بلدا آمنا"و" اجعل هذا البلد آمنا"

---

(1)– انظر: الإسكافي، محمد بن همام، درة التنزيل وغرة التأويل، (ت:336)هـ، بيروت، ص29.

(2)– انظر: الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل: ص29

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلت:فان سأل في الأول إن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثانية أن يخرجه من صفه كان عليها من الخوف التي ضدها من الأمن كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمناً ([1]).

أما الإمام الرازي فقد تتبع الاسكافي في تحليله، إلا أنه صرح بنكتة التقدير في حال التنكير وهي المبالغة حيث قال في الوجه الثاني:أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلداً ، فقوله"اجعل هذا بلداً آمناً " تقديره:" اجعل هذا البلد بلداً آمناً ".

أي اجعله من البلدان الكاملة في الأمن، أما قول رّب اجعل هذا البلد آمناً " فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة([2]).

قوله تعالى: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا)(البقرة:125) معطوف على ما قبله والمعنى: واذكر أيها الرسول – أو أيها الناس – إذ جعلنا البيت الحرام مثابة للناس وأمنا أي ذا أمن، بأن خلقنا بما لنا من القدرة في قلوب الناس من الميل إلى حجه والرحلة إليه المرة بعد المرة من كل فج وصوب ما كان به مثابة لهم، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان به أمنا، ولفظ (البيت) من الأعلام الغالبة على بيت الله الحرام بمكة كالنجم على الثريا، كان كل عربي يفهم هذا من إطلاق الكلمة([3])

يذكّر الله – تعالى – العرب بهذه النعمة أو النعم العظيمة وهي جعل البيت الحرام مرجعا للناس يقصدونه ثم يثوبون إليه، ومأمنا لهم في تلك البلاد بلاد المخاوف التي يتخطف الناس فيها من كل جانب، وبدعوة إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – للبيت وأهله المؤمنين، وفي هذا التذكير ما فيه من الفائدة في تقرير دعوة النبي – صلى الله عليه وسلم – وبيان بنائها على أصول ملة إبراهيم، الذي تحترمه قريش وغيرها من العرب، وقد اختار المثابة على نحو القصد والمزار ؛ لأن لفظ المثابة يتضمن هذا وزيادة فإنه لا يقال: ثاب المرء إلى الشيء إلا إذا كان قصده أولا ثم رجع إليه.

ولما كان البيت معبدا وشعارا عاما، كان الناس الذين يدينون بزيارته والقصد إليه للعبادة يشتاقون الرجوع إليه، فمن سهل عليه أن يثوب إليه فعل، ومن لم يتمكن من

---

(1)– انظر: الزمخشري، الكشاف: 287/3

(2)– انظر: الرازي، التفسير الكبير: 477/1

(3)– انظر: الجوزي، زاد المسير في علم التفسير،141/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرجوع إليه بجثمانه، رجع إليه بقلبه ووجدانه، وكونه مثابة للناس أمر معروف في الجاهلية والإسلام، وهو يصدق برجوع بعض زائريه إليه، وحنين غيرهم وتمنيهم له عند عجزهم عنه"([1]).

وكذلك جعله أمنا معروف عندهم، فقد كان الرجل يرى قاتل أبيه في الحرم فلا يزعجه، على ما هو معروف عندهم من حب الانتقام والتفاخر بأخذ الثأر

قد يقال: ما وجه المنة على العرب عامة بكون البيت أمنا للناس ؟والفائدة فيه، إنما هي للنجاة والضعفاء الذين لا يقدرون على المدافعة عن أنفسهم. والجواب عن هذا: أنه ما من قوي إلا ويوشك أن يضطر في يوم من الأيام إلى مفزع يلجأ إليه لدفع عدو أقوى منه أو لهدنة يصطلح في غضونها مع خصم يرى سلمه خيراً من حربه، وولاءه أولى من عدائه، فبلاد كلها أخطار ومخاوف لا راحة فيها لأحد، وقد بين الله المنة على العرب إذ جعل لهم مكاناً آمناً بقوله في سورة العنكبوت (67): "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ".

وامتن الله في القرآن على عباده بهذه النعمة:

فقال تعالى: "أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ" (القصص: 57) وقال: "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا" (البقرة: 125).

وامتن الله بهذه النعمة على أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: "وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (الأنفال: 26). والأمن مطلب الناس جميعاً:

فإبراهيم عليه السلام يدعو الله أن يجعل البلد آمناً: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ" (إبراهيم: 35).

ويوسف عليه السلام يطلب من والديه دخول مصر مخبراً باستتباب الأمن بها "فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ" (يوسف: 99).

---

(1)– أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 157/1.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولمَّا خاف موسى أعلمه ربه أنه من الآمنين ليهدأ رَوْعه، وتسكن نفوسهَ "وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ "(القصص: 31).

2.9.3 الدعاء بالرزق

وجاء في سورة إبراهيم "وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " الآية(37). و جاء في سورة البقرة "وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " الآية(126)

فسر هذا التنوع انه ما جاء في سورة إبراهيم ورد في ثنايا الدعاء لذريته وتكملة لقوله قبله "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ "، فناسب هذا أن يقول "وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " واتبع الدعاء برجاء الشكر لان ما تقدمه داعياً للشكر، فقد أسكنهم بواد خال من الحياة"غير ذي زرع" فتوجه الناس إلى الذهاب إليهم في شوق جارف([1]).

وأما ما جاء في سورة البقرة فقد ورد ضمن الدعاء للبلد الحرام وأهله على العموم، من ذريته أو من غيرهم "رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات " ومن ثم اتبع هذا بقوله " من أمن منهم بالله واليوم الأخر"

فخص الدعاء بالمؤمنين من أهل البلد بعد التعميم السابق، لان أهل هذا المكان منهم المؤمن ومنهم غير المؤمن. "من آمن منهم بالله واليوم الآخر" بدل من أهله بدل البعض لذلك خصهم بالدعاء إظهارا لشرف الإيمان واهتماماًبشان أهله ومراعاةً لحسن الأدب وفيه ترغيب لقومه في الإيمان وزجر عن الكفر كما أن في حكايته ترغيباً وترهيباً لقريش وغيرهم من أهل الكتاب([2]).

---

(1)– انظر: أبو ستيت، الشحات محمد، خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، مطبعة الأمانة، مصر 1991م ط1، ص431–433.

(2)– انظر :أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 159/1، انظر: السعدي، كلام المنّان، 65/1

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بينما لم يخصص الدعاء في سورة إبراهيم بالمؤمنين، لأنه كان خاصا بذريته الذين أسكنهم عند بيت الله الحرام، وهم مؤمنون فلا داعي للتخصيص([1]).

وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصا على شيوع الإيمان لساكنيه لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم خصت المؤمنين تجنبوا ما يحيد بهم عن الإيمان، فجعل تيسير الرزق لهم على شرط إيمانهم باعثا لهم على الإيمان، أو أراد التأدب مع الله تعالى فسأله سؤالا أقرب إلى الإجابة ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال: (ومن ذريتي) فقال: (لا ينال عهدي الظالمين) أن غير المؤمنين ليسوا أهلا لإجراء رزق الله عليهم وقد أعقب الله دعوته بقوله (ومن كفر فأمتعه قليلا) ومقصد إبراهيم من دعوته هذه أن تتوفر لأهل مكة أسباب الإقامة فيها فلا تضطرهم الحاجة إلى سكنى بلد آخر لأنه رجا أن يكونوا دعاة لما بُنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنفية وهي خصال الكمال، وهذا أول مظاهر تكوين المدينة الفاضلة([2]).

جْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم مَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" (البقرة:26).

سر آخر من أسرار النظم القرآني في تقديم الأمن على الرزق:

فبدأ بالأمن قبل الرزق لسببين:

الأول : لأن استتباب الأمن سبب للرزق،فإذا شاع الأمن واستتبّ ضرب الناس في الأرض، وهذا مما يدر عليهم رزق ربهم ويفتح أبوابه،ولا يكون ذلك إذا فُقد الأمن.

الثاني :ولأنه لا يطيب طعام ولا يُنتفع بنعمة رزق إذا فقد الأمن. فمن الناس من أحاط به الخوف من كل مكان، وتبدد الأمن من حياته ثم يجد لذة بمشروب أو مطعوم؟!

ولقائل أن يقول: فلماذا قدم الرزق على الأمن في سورة قريش؟ قال تعالى:الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ "(قريش:4)

فالجواب: إن هذه السورة خطاب للمشركين، وعند مخاطبة هؤلاء يحسن البدء بالقليل قبل الكثير، وباليسير قبل العظيم.. ودليل ذلك قول الله تعالى:يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(1)– انظر: ابو ستيت، خصائص النظم القرآني: ص433

(2)– انظر: الرازي، التفسير الكبير: 107/19

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
نزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ
أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ "(البقرة:21-22).

فبدأ بخلقهم قبل خلق السماوات والأرض، وخلقهما أكبر من خَلْقِ الناس. قال تعالى: "خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ" (غافر: 57)([1]). ولعل هناك سبب آخر في سورة قريش في تقديم الرزق:أنه بواد غير ذي زرع لايملك شيئاً فلا يوجد ما يخاف أن يأمن عليه من مال ورزق ونحوه...

---

(1)- الرازي، التفسير الكبير: 107/19

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

فقد كانت هذه محاولة متواضعة للكشف عن بعض أوجه الإعجاز البياني والأسرار البلاغية في سورة البقرة على وجه الخصوص، حيث سعت الدراسة إلى التعريف بسورة البقرة وعلم الخطاب والأسلوب والبيان في القرآن الكريم من معاجم اللغة، وكتب البلاغة وعلم السياق القرآني، وأبرز من تحدث عنه من العلماء، ثم انتقلت إلى الجانب التطبيقي البلاغي وأنواعه المختلفة، حيث عرضت لأمثلة تطبيقية على الأساليب البيانية والأسرار البلاغية المختلفة في سورة البقرة.

ومن خلال هذا البحث توصلت إلى النتائج الآتية:

1. إن فكرة الإعجاز القرآني قديمة قدم القرآن نفسه، ولطالما لفت النبي r المسلمين إلى التعامل مع القرآن الكريم باعتباره وحدة واحدةوتنبه الصحابة ومَن بعدهم إلى أهمية السياق في التوصل إلى الفهم الصحيح للنص القرآني؛ والمعاني الإضافية التي يفيدها ترتيب آي القرآن وسوره، وانطلقوا في تفسيراتهم وتأويلاتهم منها، ولعل ضعف السليقة العربية في العصور التالية من جهة، وتركيز الكثيرين على التفصيلات والتفريعات النحوية والفقهية وغيرهما، مما أدى إلى غياب النظرة التفصيلية الثاقبة لآيات القرآن الكريم وسوره.
2. أكدت الدراسة توقيفية ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره.
3. عزز البحث حقيقة الوحدة الموضوعية في سورة البقرة، من خلال اسمها مع محورها، التناسب في خطاباتها، وكذا تناسب فواصلها، وتميزها بمفردات خاصة بها.
4. إنّ الباحث عن لطائف الإعجاز البلاغي؛ في القرآن الكريم بشكل عام وسورة البقرة بشكل خاص يجد ما يشبع النهم، ويكسب الدارس له ملكة في التفسير البياني مميزة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التوصيات

1. يرى الباحث أن هناك عدداً من القضايا والعناوين الفرعية في هذه الرسالة تستحق أن تفرد برسائل مستقلة، كالتقديم والتأخير مثلاً فهو باب واسع في السورة، والفاصلة القرآنية التي لا تكاد تخلو منها آية في السورة، إلى آخر الأمثلة في ذلك.
2. يرى الباحث أن هذه الأطروحة، شأنها شأن الكثير من الدراسات حول الأسلوب البياني في الخطاب القرآني في سوره، لم تفد على الوجه الأكمل، من التراث البلاغي والنقدي العربي، ولا من البحوث اللغوية المعاصرة، وتحليل الخطاباب، وغيرها، مما يعني ضرورة الالتفات إلى هذا الجانب.

هذا ولا يدعي الباحث أنه قد وفى الموضوع حقه من البحث والدراسة،وا ٕذا كان قد قصر في شيء منه أو عجز عن الوفاء بما يستوجبه من الاستقراء والتحليل، أو التحقيق والتمحيص؛ فعذره أنه قد بذل غاية ما يستطيع في التقصي والاسترشاد، وأن الطريق الذي نهج لم يكن في كل مسالكه مطروقاً ، ولم يكن يجد دائما من يأتم به في سيره،فضلاً عن أن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا يزال يزخر بلآلىء من المعاني، تفنى الأعمار عن متابعتها.

هذا ما أمكنني الله من كتابته وتسطيرهما و ُجد فيه من نقص وتقصير فمن نفسي ومن الشيطان،وما كان فيه من خير وا ٕحسان، فمن الحنان المنان،فله الحمد أولاً وأخراً ، وهو الرحيم الودود.وصلى الله على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه والصالحين.

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل كاتبه وقارئه وكل من كان له فيه سهم، آمين.

والحمد لله رب العالمين....

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المراجع

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد، 1996م، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1.

ابن الأثير، ضياء الدين، 1984م، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار الرفاعي بالرياض، ط3.

ابن حنبل، أحمد، 2001م، **المسند**، تحقيق: شعيب الأرناووط، موسسة الرسالة،ط1 .

ابن خزيمة، محمد بن أسحاق،2003م، **صحيح ابن خزيمة**، المكتب الإسلامي.

ابن دقيق، تقي الدين ابن دقيق العيد، (د.ت) **إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام**، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية- القاهرة.

ابن عاشور، محمد الطاهر، 1997م، **التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس.

ابن عساكر، علي بن الحسن،1995م،**تاريخ مدينة دمشق**،تحقيق: عمرو بن غرامه،دار الفكر.

ابن فارس، أبي الحسن أحمد بن فارس، 1995م، **معجم المقاييس اللغة**، حققه شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، ط1.

ابن كثير، الحافظ إسماعيل بن كثير، 1983م، **تفسير القرآن العظيم**، دار المفيد، بيروت- لبنان ط1.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد الإفريقي، 1994م، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت ط3.

ابن منقذ، أُسامة، 1987م، **البديع في البديع**، تحقيق علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ط1.

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي،2010، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**،تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار إحياء التراث العربي-بيروت ط1.

أبو دف، محمود خليل، 2002، **مقدمة في التربية الإسلامية**، مكتبة آفاق – غزة.

أبو زيد، نصر حامد، 1996، **مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن**، المركز الثقافي العربي- بيروت ط3.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أبو ستيت، محمد الشحات، 1991م، **خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام**، مطبعة الأمانة، مصر ط1.

أبي داود، سليمان بن الأشعث،(د.ت) **سنن أبي داود**،تحقيق: محمد محي الدين، دار إحياء السنة النبوية،

الإدريسي، محمد بن مهدي، 1419هـ، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق: أحمد عبد الله قرشي، الناشر:حسن عباس زكي، القاهرة.

الأدنروي، أحمد بن محمد، 1997م، **طبقات المفسرين**، تحقيق: سلمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1.

الإسكافي، محمد بن همام، (د.ت) **درة التنزيل وغرة التأويل**، دار المعرفة، بيروت.

الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد (د.ت) **المفردات في غريب القرآن**، دار المعرفة – بيروت.

إقبال، محمد، 1968، **تجديد الفكر الديني في الإسلام**، ترجمة عباس محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ط2.

الألباني، محمد ناصر الدين، 1995م، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، مكتبة المعارف، الرياض.

الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، (د.ت) **الموافقات**، تحقيق مشهور آل سلمان، دار ابن عفان–القاهرة.

المطعني، عبد العظيم، 2002، "**الالتفات**"، بحث منشور ضمن "الموسوعة القرآنية المتخصصة"، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر،.

الألوسي، شهاب الدين محمود، 2003، **روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني**، تحقيق على عطية، دار الكتب العلمية – بيروت ط1.

الجويني، محمد، 1997، **البرهان في أصول الفقه**، تحقيق صلاح بن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ط1.

السرخسي، محمد، (د.ت) **أصول السرخسي**، دار الكتب العلمية – بيروت.

الآمدي، سيف الدين (د.ت) **مقدمة الآمدي**، دار الكتب العلمية – بيروت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأندلسي، القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية، 1979م، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق المجلس العلمي – فأس– المغرب.

الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، 2001، **البحر المحيط**، تحقيق عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية – بيروت ط1.

البخاري، محمد بن إسماعيل، 1998م، **الجامع الصحيح**، **بيت الأفكار الدولية**، الرياض.

بدوي، أحمد أحمد، 2005، **من بلاغة القرآن**، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ط1.

البغدادي، الخطيب، (د.ت) **تلخيص المفتاح**، شرح البرقوقي، دار الفكر، القاهرة.

البغوي، الحسين بن مسعود، 1983م، **شرح السنة**، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 3،.

البقاعي، برهان الدين، 1995م، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية– بيروت.

البيضاوي، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله (د.ت) **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار الفكر – بيروت.

البيهقي،أحمد بن الحسين،2003م،**الجامع لشعب الإيمان**،مكتبة الرشد، الرياض،ط1.

الترمذي، محمد بن عيسى،(د.ت)،**سنن الترمذي**،تحقيق:أحمد محمد شاكر، المكتبة الإسلامية

الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، 1985، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5.

الجرجاني، علي بن محمد، 1985، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي– بيروت.

الجرجاني، عبد القاهر، 1991م، **أسرار البلاغة**، علق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط1.

الجرجاني، عبد القاهر، 1998، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط2،.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجمل، سليمان بن عمر، 1999، **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الجوزي ّ عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي ّ ، 1984م، **زاد المسير في علم التفسير**، المكتب الإسلامي ط3.

الجوزي ّ ، عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي ّ ، 1985م، **المدهش**، تحقيق: مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2.

الجوزيّة، محمد بن أبي بكر ابن قيّم، (د.ت) **التفسير القيم**، تحقيق محمد حامد الفقي، دار العلوم الحديثة، بيروت– لبنان.

الجوزيّة، محمد بن أبي بكر ابن قيّم، 1991م، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية ط25–

الجوزيّة، محمد بن أبي بكر ابن قيّم، 1968، **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، ت: طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

الجوزيّة،محمد بن أبي بكر ابن قيّم، 1996م، **بدائع الفوائد**، ت: هشام عبد العزيز، مكتبة نزار الباز– مكة المكرمة ط1.

الجويني، محمد،1997م،**البرهان في اصول الفقه**،تحقيق:صلاح بن محمد،دار الكتب العلمية،بيروت.

الحاكم، محمد بن عبد الله،(د.ت)، **فضائل القرآن**،تحقيق مصطفى عبد القادر،دار الكتب العلمية ،بيروت،

الحموي، أبن حجة، 1987م، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، شرح عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، بيروت ط1.

الحموي، بدر الدين محمد بن إبراهيم، 1990م، **غرر التبيان في من لم يسم في القرآن**، تحقيق عبد الجواد خلف، دار قتيبه ط1.

الخفاجي، شهاب الدين، 1975، **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، دار صادر– بيروت.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، (د.ت) **سير أعلام النبلاء**، حقق بإشراف، شعيب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأرناؤوط وأكرم البوشي.
الرازي ، محمد ابن أبي بكر، 1996م، **مختار الصحاح**، دار عمار، عمان، ط1.
الرازي ، محمد عمر، 2000م، **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي- بيروت ط1.
الرازي، محمد عمر، 1985م، **نهاية الإيجاز في دراسة الأعجاز**، تحقيق:بكري أمين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1.
رضا، محمد رشيد،1990، **تفسير القرآن الحكيم، المشهور بالمنار**، دار الفكر، ط2.
الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله، (د.ت) **البرهان في علوم القرآن**، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب العلمية-بيروت.
الزركلي ، خير الدين، (د.ت) **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
الزمخشري ، محمود بن عمر، 1987، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الريان للتراث- القاهرة ط3.
السامرائي، فاضل، 2003م، **معاني النحو**، العاتك لصناعة الكتب، القاهرة-
السدّ ، نور الدين، 1997م، **الأسلوبية وتحليل الخطاب**، دار هومة للطباعة والنشر- الجزائر.
السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، 1979، **كلام المنّان**، تحقيق محمد النجار، مؤسسة السعيدية - الرياض.
السكاكي ، يوسف بن محمد، 2000، **مفتاح العلوم**، دار الكتب العلمية، بيروت- ط1.
سلامة ، محمد حسين، 2002م، **الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم**، دار الآفاق العربية- القاهرة ط1.
السمرقندي ، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم (د.ت) **بحر العلوم**، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
السمرقندي ، أبي النصر، 1408هـ ، **المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى**، تحقيق: صفوان عدنان، دار القلم- بيروت ط1.
السهيلي، أبي القاسم عبد الرحمن، 1980، **نتائج الفكر في النحو**، تحقيق محمد إبراهيم ألبنا، دار الرياض للنشر والتوزيع.
السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، 1995م، **الإتقان في علوم القرآن**،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دار الكتب العلمية، بيروت، ط3.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، 1396هـ، **طبقات المفسرين**، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1.

الشائب، أحمد، 1396هـ، **الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ط7.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى،(د.ت)،**الموافقات في أصول الفقه**،تحقيق:مشهور آل سلمان،دار ابن عفان،القاهرة.

شرف، حفني، 1970، **التصوير البياني**، مكتبة الشباب، مصر.

الشوكاني، محمد بن علي، 1992، **إرشاد الفحول لتحقيق الحق من علم الأصول**، تحقيق: محمد سعيد البدري، دار الفكر –بيروت.

الشوكاني، محمد بن علي، 1983م، **فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير**، دار الفكر، بيروت، لبنان.

الشوكاني، محمد بن علي،1998م،**البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**،تحقيق:محمد حسن،دار الكتب العلمية ،بيروت،ط1.

شيخون، محمود، 1977م، **الاستعارة نشأتها- تطورها- أثرها في الأساليب العربية**، دار الطباعة المحمدية ط1.

الصاوي، أحمد، 1979م، **فن الاستعارة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الطباطبائي ، محمد حسين، 1974، **الميزان في تفسير القرآن**، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، ط2.

الطبري ، محمد بن جرير، 2000، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ط1.

طبل، حسن، 1999، **علم المعاني**، مكتبة الإيمان بالمنصورة، مصر.

الطّحاوي، أبو جعفر، 1985، **شرح معاني الآثار**، تحقيق محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية – بيروت ط1.

طنطاوي، محمد سيد، 1997، **التفسير الوسيط**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة- القاهرة ط1-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عامر ، فتحي أحمد، 1988م، **فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، منشأة المعارف – الإسكندرية.

عباس، فضل حسن و سناء فضل عباس، 2001م، **إعجاز القران الكريم**، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان ط4.

عباس ، فضل حسن، 1997م، **إتقان البرهان في علوم القرآن**، دار الفرقان، عمان، ط1.

عباس ، فضل حسن، 1997، **البلاغة فنونها وأفنانها**، دار الفرقان، عمان، ط4.

عبدالمهدي، نور الدين بن عبد المهدي، 1986م، **حاشية السندي على النسائي**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غده، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2-.

العسقلاني، ابن حجر، (د.ت) **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، رقمه محمد فؤاد عبد الباقي، وقرأ أصله الشيخ عبد العزيز بن باز، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر (د.ت) **الإصابة في تمييز الصحابة**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، 2008م، **تهذيب التهذيب**، تحقيق: عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

العسكري ، أبي هلال، 1979م، **الفروق في اللغة**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط3.

العطار ، حسن بن محمد 1992، **حاشية العطار على جمع الجوامع**، دار الكتب العلمية – بيروت.

عطية، محمد مصطفى، 1989م، **الخطابات في القرآن الكريم وتعدد وجوه الخطابات.**

عطية ، مختار، 2004، **علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر-الإسكندرية-.

علوان، نعمان شعبان، 2001، **الأساليب البيانية والخطاب الدعوي الواعي**، الجامعة الإسلامية-غزة.

علوي، أبن خليفة، 1404هـ، **جامع النقول في أسباب النزول وشرح آياتها**، ط1، دار المعرفة، بيروت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلوي، يحيى بن حمزة، 1972، **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

عودة، عودةالله عبد،2006م، **أدب الخطاب عند الأنبياء عليهم السلام من منظور قرآني،موسى عليه السلام نموذجاً** .

الغزالي، أبو حامد، 1413، **المستصفى من علم الأصول**، ت: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية – بيروت ط1.

الغزالي، أبو حامد، 1993، **معيار العلم في المنطق**، تعليق بو ملحم، دار ومكتبة الهلال– بيروت– لبنان ط2.

الفيومي ، أحمد محمد، 1981، **المصباح المنير**، مطبعة مصطفى الباني الحلبي بمصر.

الفيومي، عاطف عبد المعز،2011م،**أثر السياق في فهم الخطاب الشرعي**،شبكة المختار.

القرشي، محمد بن أحمد،1998م،**ذيل سير أعلام النبلاء**، تحقيق: محمود الأرناووط،دار صادر ،بيروت،ط1

القرطبي، محمد بن حامد الأنصاري، 1995م، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الفكر، بيروت.

القزويني، محمد بن عبد الرحمن الخطيب (د.ت) **الإيضاح في علوم البلاغة**، شرح محمد خفاجي، دار مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

القماش، عبد الرحمن بن محمد،2009م، **الحاوي في تفسير القرآن الكريم**،ط1.

قصباوي، عبد القادر،2011،**الخطاب ودلالاته عند الغزالي**،منتدى التعليم العالي

قطب، سيد ، 1977م، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة. ط5.

الكلبي ، ابن جزي، 1995، **التسهيل لعلوم التنزيل**، دار الكتب العلمية، بيروت ط1–.

الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب، 2007، **النكت والعيون**، تحقيق السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت.

المباركفوري، أبو العلي محمد بن عبد الرحمن، 1986م، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط2.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مجمع اللغة العربية، 1998م، **المعجم الوسيط**، القاهرة، ط3.

محمد، طارق مصطفى،2007 م،**التناسب في سورة البقرة**،رسالة ماجستير.

محمود ، علي عبد الحليم، 1991، **فقه الدعوة إلى الله**، دار الوفاء، المنصورة –مصر ، ط2، م.

المسدي ، عبد السلام، 1982، **الأسلوب والأسلوبية**، الدار العربية للكتاب ط3.

مسلم، أبو الحسين، مسلم بن الحجاج، 1998م، **صحيح مسلم**، بيت الأفكار الدولية، الرياض.

مطلوب ، أحمد وكامل حسن، 1999م، **البلاغة والتطبيق**منشورات وز ارة التعليم العالي – العراق، ط2.

مطلوب، أحمد ، 1980، **أساليب بلاغية**، وكالة المطبوعات بالكويت.

الميداني ، عبد الرحمن حسن، 1985، **الأمثال القرآنية**، دار القلم، دمشق– ط1.

منقور، عبد الجليل، 2011م،**الخطاب والدلالة قراءة في تأويل النص القرآني**،موسوعة دهشة.

النسائي ، أحمد بن شعيب،1930م،**المجتبى**، دار التراث العربي، بيروت.

النووي ، محمد، 1929م، **شرح صحيح مسلم**، دار إحياء التراث العربي،بيروت ط1.

النيسابوري ، حسن بن محمد، 1996، **غرائب القرآن و رغائب الفرقان**، تحقيق الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية بيروت ط1.

الواحدي ، أبي الحسن علي بن أحمد، 1987، **أسباب النزول**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت ط3.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com